مالـــك بن نبــى
المفكر الإسلامى الجزائرى

تبسيط

مشكلة الأفكار فى العالم الإسلامى

Le Problème des Idées dans le Monde Musulman

دور الأفكار فى رقى الفرد وفى تحضر المجتمع . ودور
قادة الصراع الفكرى والاستعمار فى تخلف العالم الإسلامى
وإعاقة تحضره .. وكيفية التغلب على الصعاب

ترجمة و تلخيص و إعادة صياغة
محمد عبد العظيم علىَ

دار الدعوة

تبسيط
مشكلة الأفكار
فى العالم الإسلامى

الطبعة الأولى

١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م

رقم الإيداع القانونى
٩٧/٥٢٩١

الترقيم الدولى 6 - 149 - 253 -977

دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع
المركز الرئيسي : ٢ ش منشا - محرم بك - الإسكندرية
ت : ٤٩٠١٩١٤ - ٤٩٠٧٩٩٨ - فاكس : ٥٩٥١٦٩٥
مكتب توزيع القاهرة : ت : ٢٨٣٢٧٤٧

تأليف

مالـــك بن نبـــى

المفكر الإسلامى الجزائرى

تبسيط

مشكلة الأفكار فى العالم الإسلامى

Le Problème des Idées dans le Monde Musulman

دور الأفكار فى رقى الفرد وفى تحضر المجتمع ..

ودور قادة الصراع الفكرى والاستعمار فى تخلف العالم الإسلامى وإعاقة تحضره ....

وكيفية التغلب على الصعاب

ترجمة و تلخيص و إعادة صياغة

محمد عبد العظيم علىّ

دار الدعوة

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المختصر

فى عالم اليوم الذى تسود فى أغلب أرجائه الحضارة المادية التى تدور فيها الأفكار حول الأشياء .. وبينما العالم الإسلامى يمر بمرحلة مابعد التحضر حيث تنزوى فيه الأفكار شيئاً فشيئا ، وتزحف الأشياء لتحتل مكان الأفكار ، وتتبدل الأفكار الأصيلة فى عالمه الثقافى بأفكار مكتسبة غريبة عليه ، تشوه القيم الأخلاقية فى الأشخاص ، وتقلب الروابط الاجتماعية من أساسها ، فيتجه المجتمع رويداً رويداً نحو الحضارة المادية – وإن لم يكن هذا التحول قد تحقق بتمامه فى هذه الأيام.. وإن كان فى طريقه إلى التحقق– فإن إعادة التأمل فى مدى أهمية الأفكار ودورها الحضارى ، ومشكلاتها فى العالم الإسلامى تكون أشد إلحاحاً اليوم من أى وقت مضى.

وكتاب " مشكلة الأفكار فى العالم الإسلامى" وقد صدر منذ مايزيد على ٢٥ عاماً حمل رؤية المفكر الإسلامى الجزائرى – مالك بن نبى – لقضية الأفكار بصفة عامة وفى ظل الظروف التى كانت سائدة وقت صدوره بصفة خاصة،ومع التغيرات التى طرأت على العالم كله منذ ذلك الوقت والتى تتجدد يوما بعد يوم، فقد برزت للكتاب أهمية أخطر فى هذه الأيام،وأصبحت له معانى جديدة فوق المعانى التى كانت له وقت صدوره.

***

ومن معالم التغيير وبشائر المستقبل – إن شاء الله – مانراه ونسمعه من قلق علماء ومفكرى وفلاسفة وعظماء الغرب وإحساسهم بالخطر القادم.. ولقد عبر عن ذلك أحسن تعبير الأمير تشارلز – ولى عهد بريطانيا – فى مرات متكررة ، وأخيرا فى كلمة ألقاها يوم ١٩٩٦/١٢/١٣ (كما نقلتها لنا جريدة الشعب العدد ١١٣٢ بتاريخ ٩٧/١/٢٨) عبر فيها عن إيمانه بالدعوة العالمية للإسلام ، وبهيمنة الإسلام وقوته ، إلى درجة أنه لايمكن لأى يهودى أو مسيحى أن يفهم دينه أو أن يكون صحيح الإيمان إلا إذا تعرف على الإسلام. ومن حديثه: " ان الثقافة الاسلامية فى شكلها الأصلى قد سعت إلى المحافظة على الرؤية الروحية الجامعة للعالم كله بطريقة لم نحاول اتباعها فى الأجيال

الأخيرة في الغرب. هناك الكثير الذي يمكننا أن نقتبسه من العالم الإسلامي في رؤيته للكون. فرؤية الإسلام للعالم يمكنها أن تساعدنا على فهم الروحانيات الأساسية في ديانتنا أي (المسيحية) ".

وأشار إلى أن الإسلام يحمل رسالة حضارية إلى الغرب عليه أن يتعلمها منه . فهو يقول : " ان الحضارة الإسلامية في حقيقتها لها رسالة مهمة تقدمها للغرب. وذلك بنظرتها المتكاملة والمتحدة لقدسية العالم الذي يحيط بنا . وإني أشعر اننا هنا في الغرب يمكن أن نساعد في إعادة اكتشاف جذور تفهمنا للحياة ، وذلك بتقدير ذلك الاحترام العميق في التعاليم الإسلامية لنظام الكون الذي أبدعه الخالق".

ويؤكد على وجود البعد الروحي في الفن الإسلامي ، فيقول :" إن الفنان المسلم لم يكن همه إظهار الأشياء لمجرد إظهار الابداع نفسه. بل كان كل قصده تسخير عمله لمرضاة الله ، وتعكس هذه النظرة الآية الكريمة : ﴿ فأينما تولوا فثم وجه الله ﴾ والآية : ﴿ إن الله عليم خبير ﴾".

وفي تحليل رائع انتقد الأمير تشارلز الحضارة الغربية . فذكر أن الجوانب الروحية فيها لاتحظى بالاحترام. وهو ماجعل الأفراد يخافون حتى من ذكر اسم الله حتى لايكونوا مثارا للاستخفاف والسخرية..

ووجه انتقاده إلى المذهب المادي الذي يمثل الأساس الفلسفي والفكري والمعرفي للحضارة الغربية القائمة اليوم. وأشار إلى نتائجه المدمرة على الحضارة الغربية خاصة وعلى الإنسانية عامة. فقد دعا المذهب المادي إلى اعتبار الروحانيات والمقدسات والغيبيات خارج موضوع العلم. ففصل العلم عن الدين ، وجعل من الإنسان مادة فقط ، وأهمل الجانب الروحي بداخله. ونظر إلى الكون باعتباره مالكاً له. ومن ثم فإنه يستطيع أن يستغله كما يحلو له دون نظر إلى القوانين التي وضعها الخالق لتحقيق التوازن الداخلي له. وتجلت وحشية الأنماط الغربية للتنمية والتطبيق التكنولوجي للعلوم ، لأنها انفصلت عن الجانب الأخلاقي، وتدثرت بنزعة استعلائية متألهة أدت إلى نتائج وخيمة ومدمرة تعكس فقدان الإحساس بالمسئولية تجاه الكون والبشر الذين يشتركون مع الغرب في العيش في هذا الكون.

وهو يتبنى رؤية انتقادية حادة في مواجهة الكنيسة وكبار المسئولين فيها ، ويشكك في قدرة الكنيسة البريطانية على توفير القيادة الروحية للمجتمع خلال القرن المقبل. وهو يريد أن يجعل من المجتمع البريطاني مجتمعا متعدد الثقافات . ويريد أن يجعل من نفسه ملكا لكل مواطني بريطانيا وليس فقط المسيحيين، وهو يضع في اعتباره

وجود ثلاثة ملايين مسلم بريطانى لم يتم الاعتراف بهم كأقلية برغم أنهم أكثر من عدد اليهود.

أثارت كلمته هذه عواصف مَدوية فى المجتمع البريطانى وفى الصحف .. وبرغم ردود الفعل الغاضبة ضد الأمير تشارلز التى اتخذت طابعا هجوميا ضد الإسلام وتوجيه اللوم للأمير ، واتهامه بأنه يمارس نوعا من الإرهاب المعنوى المبطن ، وبأنه باستناده إلى الإسلام وتركه تراث الاستنارة الغربى قد صار أصولياً أى متطرفاً بتعبير دعاة الاستنارة الغربية .. إلا أن أحداً لم يقم بالدفاع عن الثغرات الخطيرة التى تواجه الحضارة الغربية .. وهو مايعنى أن الحضارة الغربية تواجه أزمة حقيقية ، وأنها تعانى إفلاساً.

ومن جهة أخرى تحدث المستشار الألمانى هيلموت شميث رئيس الاشتراكية الدولية وأحد المشاركين فى مؤتمرات الحوار الإسلامى المسيحى. الذى زار القاهرة مؤخرا ليشارك فى مؤتمر " العالم الإسلامى والتحدى العربى" فقال لمجلة نصف الدنيا العدد ٣٦٢ بتاريخ ١٩/١/١٩٩٧ : كنت مثل الغالبية العظمى من الألمان قد كونت رأياً عن الإسلام بناء على ماحصلته من معلومات فى مراحل التعليم المختلفة والتى كانت فى معظمها معادية للإسلام.. وعندما التقيت بالرئيس السادات حدثنى عن طبيعة الإسلام وأنه دين سلام .. فتغيرت وجهة نظرى ، وبدأت أتعامل مع الإسلام بعيداً عن نظرة الكتب الغربية كلاسيكية العداء للإسلام،وقرأت عن الإسلام الصحيح والتقيت بكبار المفكرين المسلمين ، وأيقنت أننى كنت على خطأ .. وربما كان فى قيامى بعرض الصورة الصحيحة عن الإسلام فى بلادى وفى أوروبا من خلال المؤتمرات والندوات تعويضا عن خطئى.

واقترح هيلموت شميث انشاء مركز علمى يضم كبار العلماء الموضوعيين من المعسكرين الشرق الإسلامى والغرب المسيحى ـ ليقوموا بفرز المناهج التعليمية والكتب الثقافية ، وتصحيح مافى الكتب من أخطاء أو اتهامات للديانتين ولأن التعايش بين الشرق والغرب أصبح ضرورة وليس مجرد اختيار.

وحول المقولة التى يروج لها البعض فى الغرب من أن الإسلام بعد سقوط الشيوعية أصبح هو " العدو الأول " قال المستشار الألمانى : " هذه مقولة ظالمة " روج لها من يريد استمرار القطيعة بين الشرق والغرب ، فالإسلام الذى قرأت عنه لايعادى أحداً ولايكره أحداً على اعتناقه .. بل يدعو إلى التعايش السلمى مع الآخرين .. وإذا كانت هناك بعض التصرفات الطائشة من بعض المنتسبين للإسلام فهذا خطأ هؤلاء وليس خطأ الإسلام .. ثم إن المتطرفين موجودون فى كل دين ، ويرفعون الشعارات

الدينية حتى تتحقق لهم مصداقية أمام الرأى العام.

ويضيف: إذا كانت قوى الإلحاد والمادية تنسق وتتحد لخدمة أهدافها وأهمها مقاومة فكرة الإله الخالق ... وإحلال الغرائز الحيوانية والقيم المادية محلها ، فالواجب على أتباع الديانات السماوية التعريف بأديانهم وبقوى الخير .. وينبغى عليهم التعالى على أحزان الماضى وحروبه ، ومعايشة الواقع الحالى .. والبحث عن نقاط الاتفاق وتدعيمها وأخذ نقاط الافتراق فى الاعتبار دون أن تكون دافعاً للخلافات الدموية ..

***

مما دعانا إلى تلخيص هذا الكتاب وإعادة صياغته بأسلوب مبسط لتقريبه إلى القارئ الكريم الذى ندعوه إلى إعادة النظر إلى ظروف عالمه الحالية. وظروف المجتمعات الإسلامية ، ووضع الإسلام فى العالم اليوم ، وموقف شتى القوى العالمية منه – من خلال رؤية هذا الكتاب الحضارية المتجددة المعانى والأهمية.

هدانا الله إلى طريقه المستقيم وأعاد لنا ثقتنا بأنفسنا ، وثقتنا بديننا وبعقيدتنا الربانية ، وأعاننا على التغلب على صعوبات وعقبات العودة إلى الله ومنهجه وشرعه ، ففيهما العزة والسعادة فى الدنيا ، والنجاة فى الآخرة.

و الله ولى التوفيق

الاسكندرية فى ٢١ مارس ١٩٩٧م

١٣ ذى القعدة ١٤١٧ هـ

محمد عبد العظيم علىّ

موجز مقدمة المؤلف

كنت قد شرعت فى تأليف هذا الكتاب منذ عشر سنوات وأنا بالقاهرة ، ثم طرأ ظرف مفاجئ يتعلق بالصراع الفكرى ، اضطرنى إلى تغيير اتجاهى ، وشرعت فى تأليف كتاب آخر لمواجهة هذا الظرف.

وأخذ مشروع إتمام هذا الكتاب يتأجل عاما بعد عام ، إلى أن زارنى صديقى الدكتور عمار طلّبى ، وألحّ علىّ لاستئناف كتابته وتكلل جهده فى إقناعى بالنجاح.

وعندما عقدتُ العزم على إتمام الكتاب أدركت مقدار ماضاع من المسودة القديمة،ووجدت مذكراتى فى جملتها خالية من الحياة فعزمت على تركها للذكرى والتاريخ.

ولن نقدم هنا دراسة وافية لمشكلة الأفكار فى العالم الإسلامى،وإنما سنكتفى بإلقاء الضوء على معالمها وعلى تركيبها الخاص.

نعتقد أن هذا الكتاب يعطى فكرة على درجة كبيرة من الصواب عن أهمية هذه المشكلة فى المجتمع الإسلامى فضلا عن أى مجتمع إنسانى.

والله الموفق

الجزائر فى ٢٧ نوفمبر ١٩٧٠

مالك بن نبى

الفصــــل الأول
إجابتان عن الفراغ الكونى

• *الثقافة الغربية*

•*الثقافة الإسلامية*

عندما يكون الإنسان فى وحدة وعزلة عن العالم ينتابه شعور بالفراغ الكونى. وبطريقة الإنسان فى ملء هذا الفراغ يتحدد نوع ثقافته وحضارته أى خصائصه الداخلية والخارجية التى يتوقف عليها دوره فى التاريخ.

وهناك طريقتان أساسيتان : إما أن ينظر الإنسان نحو الأرض (أى أن تستحوز نظرته على أشياء) وإما أن يرفع بصره نحو السماء مما يؤدى إلى شغل هذا الفراغ بالأفكار (أى أن نظرته تكون فى بحث عن الحقيقة). وينشأ عن ذلك نموذجان من الثقافة : ثقافة هيمنة – ذات جذور تقنية ، وثقافة حضارية ذات جذور أخلاقية وغيبية.

وتتجلى الظاهرة الدينية فى الإنسان الذى يوجه بصره إلى السماء فنجد فيه سمات الرجل صاحب الرسالة والدعوة (أى الأفكار) التى يريد تبليغها إلى الناس.

ويبدو أن أوروبا قد حُرمت من الظاهرة الدينية على مستوى الرسل. وكأن الرجل الأوروبى الذى يفيض شعوره بآدميته لم يجد العنصر الدينى مكاناً فيه يشغله. بينما نجد الإنسان الذى ينتمى إلى الجنس السامى مؤهلاً للمسائل الغيبية ، وان العنصر الدينى لايترك له مجالا للمشاغل الأرضية..وبين الجنس السامى والآرى الشمالى ، نرى الإغريقى الذى يشغل عزلته بالشعور بالجمال(الذى سوف ينتهى إلى تسميته بالخير) أى أنه يملأ دنياه بالأمور الشكلية.

وجملة القول أن ثقافة أوروبا تهتم بتركيب الأشياء والأشكال والتركيب التقنى والجمالى. بينما ثقافة الشرق الإسلامى تؤلف بين فكرة الحقيقة وفكرة الخير. وينطبق ذلك على مراحل التاريخ كلها.

فأحيانا تبلغ إحدى الثقافات أوجها بينما تنحدر غيرها إلى القاع وأحيانا العكس. وفى المراحل الوسيطة تظهر فترات الإخصاب المتبادل التى قد تكون أيضا فترات اختلاط وتداخل (مثل عصور بابل حيث اختلطت اللغات ، ومثل القرن العشرين حيث تضخمت الحضارة وتفاقم الخلاف الفكرى) . وأحيانا أخرى تصعد إلى القمة حضارة

تدور فيها الأشياء حول الأفكار . او حضارة تدور فيها الأفكار حول الأشياء.

وتتجلى هذه الظواهر في الأدب الشعبي حيث يعبر العقل الإنساني عن نفسه بحرية كاملة وبتلقائية بما يتفق مع جذوره الثقافية والقصة فيما يبدو هي أقرب الألوان الأدبية واقدرها على التعبير عنها.

ونختار كمثال قصتين: الأولى بعنوان "روبنسون كروزو" التي أنتجها الأدب الأوروبي تأليف " دنيل دى فواى" ، والثانية بعنوان " حي بن يقظان" من إنتاج الأدب العربي تأليف " ابن طفيل". وتبرز عبقرية القصتين في الطريقة التي يعالج بها بطل كل قصة عزلته عن العالم وهي الطريقة التي يعبر بها أصدق تعبير عن نموذج ثقافته. حيث يبدأ بطل القصة الأولى من الصفر بالنسبة للأشياء ، بينما يبدأ البطل الثاني من الصفر أيضا ولكن من حيث الأفكار..

ونأخذ شريحة من وقت " روبنسون كروزو" في عزلته في الجزيرة بعد أن غرقت سفينته ، فنراه ينفق وقته في أعمال حسية – أكل ونوم وعمل – أدت إلى تسخيره لصالح اقتصاد شخصي ذي صبغة نفعية بحتة . وقد تغلب على القلق بالعمل. وتركز خلال هذا اليوم عالم أفكاره كله حول " شئ" واحد هو صناعة " منضدة".

بينما لم تبدأ مغامرات " حي بن يقظان" إلا بعد نفوق الغزالة حيث " توقفت كل حركاتها .. فأخذ يفحص أذنيها وعينيها ، فلم يلحظ عليهما أي تلف ظاهر .. ولكنه لم يعثر على مكان الداء" ثم تتابع تصاعد عقل البطل حتى يكتشف رويدا رويدا "الروح" ثم "خلود الروح" ، وأخيراً فكرة " الخلاّق". وتتتابع حلقات القصة في صورة تأمل ودراسة تتيح للبطل أن يتوصل إلى إدراك النظام الرباني، وإلى رؤية باطنية لله ، وإلى الاهتداء إلى فكرة صفات الله... فالعالم هنا تدور فيه الأشياء حول الفكرة ، ويتغلب البطل على شعور الوحدة ببناء الأفكار واكتشافها. فهذا عالم لم يُسخّر فيه الوقت لخدمة الأشياء.

ولقد قال الأستاذ سيكار في مؤتمر علم الاجتماع الذي عقد بفرنا: " إن الوقت الصناعي المتصل لايتيح للإنسان الفرصة أبداً لكي يعيش في عزلة أو أن ينفرد مع نفسه..." وذلك في مقابل عدم تقدير الوقت في العالم الثالث ويضم العالم الإسلامي . والواقع أن نظرة سيكار تنحصر في عالم الأشياء وفيها مبالغة أصبح المجتمع الأوروبي يدرك آثارها المدمرة .. وفي المقابل ينبغي على البلاد الإسلامية أن تقدر في "ثقافتها" النتائج السلبية المترتبة على المبالغة في عدم تقدير الوقت في نشاطها. ولكن من غير أن تقع في المبالغة العكسية.

ويبدو أن الفكر الغربي يدور أساساً حول مايتعلق بالوزن والكم. وعندما ينحرف

نحو التطرف ينتهي حتماً إلى المادية بكل من شكليها : الشكل البرجوازي في مجتمع الاستهلاك ، والشكل الجدلي في المجتمع السوفيتي.

وعندما يكون الفكر الإسلامي في حالة أفول – كما هو اليوم – فإنه يغرق في التصوف ، وفي المبهم وعدم الدقة ، وفي النزعة إلى التقليد الأعمى ، وفي الإعجاب "بأشياء" الغرب.

ولكن ليس هذا هو مداره الأصيل الذي منحه القرآن الدفعة الأولى إليه ألا وهو فكرة حب الخير وكراهية الشر ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر – آل عمران ١١٠ ﴾ التي يُعتبر المسلم مُكلفا بالدعوة إليها في كل الظروف ﴿ وإذا حضر القسمة أولو القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه – النساء ٨ ﴾ ولكن القرآن يطالب بأكثر من ذلك .. إنه يريد مجتمعا لايوزع "المال" بطريقة آلية ، وإنما ينبغي أن يوزع في نفس الوقت " الخير" ﴿ وقولوا لهم قولا معروفا ... ﴾ وهكذا اكتملت الآية : انفقوا من أموالكم ، ولكن أضيفوا إلى هذا الإنفاق فكرة أو كلمة أو إشارة تترجم شعوركم ومفهومكم وفكرتكم عن "الخير" .

هذه الإضافة ذات الصبغة الروحية الخالصة يستحيل تصورها في أي تشريع آخر .. إنها تعطي للرابطة الاجتماعية النابعة من الفكر الإسلامي ، طابعاً خاصا بحيث يصبح ما يطلق علية (تناقض الطبقات) ظاهرة غريبة عن المجتمع الإسلامي.

الفصـــل الثانى
الطفــل والأفكـــار

•العمر الذى يكتشف فيه الأشياء

•العمر الذى يكتشف فيه الأشخاص

•العمر الذى يكتشف فيه الأفكار

لايستطيع الفرد أن يعيش فى عزلة دون أن يصنع لنفسه – خلال فترة محدودة من الزمن – التجربة التى تجعله يتكيف مع المجتمع وبيئته. وقد تبدأ – كما رأينا – إما من حالة انعدام الأفكار وإما من حالة انعدام الوسائل أو الأشياء إذا كان الفرد قد حمل معه "عالم أفكاره" .. وعلى أن يخضع نشاطه دائماً لأنظمة نفسية بدنية psychosomatique التى يوجد هيكلها مع جميع أنواع الأنشطة الإنسانية.

ويتم النشاط الحرفى (العامل والمقص فى يده) أو الزراعى (المزارع المنحنى على محراثه) أو الحربى (الجندى المسلح ببندقيته) من خلال عنصرين منظورين هما "الإنسان وأداته" ، يخفيان وراءهما حقيقة أكثر تعقيداً. إذ أن النشاط لايزاول إلا فى ظروف تتوافق تماماً وبالضرورة مع سؤالى "كيف؟" و "لماذا؟" لأننا لانتصرف بطريقة عشوائية فتصبح مهمتنا مستحيلة ، كما اننا لانتصرف بدون اسباب فتصير مهمتنا غير معقولة. أى أن النشاط لابد وأن يتضمن عنصراً فكرياً يمثل مبرراته وطرقه التنفيذية ويلخص كل التقدم الاجتماعى والتكنولوجى لأى مجتمع ويميزه عن غيره من المجتمعات.

وقد ألهم هذا العنصر الفكرى كارل ماركس بفكرته أن المهندس الذى يريد أن يبنى خلية للنحل من الشمع يبنيها فى ذهنه أولاً.

وهكذا تنتمى عناصر النشاط فى نهاية الأمر إلى فئات ثلاث : فئة الأشياء وفئة الأشخاص وفئة الأفكار ، يتكون منها شبكة منسوجة من هذه الفئات وتكمن فى جميع الخصائص الاجتماعية والاقتصادية والسياسية لأى نشاط.

وتكون هذه الشبكة بسيطة التركيب فى حالة الفرد المنعزل (لعدم وفرة الأشياء أو لعدم وفرة الأفكار) ، ولكن بمقدار ما يندمج الفرد فى مجتمع يقوم على نظام تقسيم العمل ، فإن العنصر الفكرى يأخذ أهميته تدريجيا فى نشاط الفرد الذى يتحتم عليه أن يتخصص وأن يحترم القواعد والأصول المتبعة فى النشاط الجماعى. وتكمن الاشتراطات

المعنوية والفنية لهذا الاندماج في الخطة النفسية البدنية التي ليس من السهل استيعابها.

والطفل إنسان منعزل في طريقه للاندماج ، ينبغي عليه أن يمر بهذه الخطة لتحقيق اندماجه. وتقدم له الأسرة والمدرسة العون الاجتماعي في هذه السبيل لكي يختصر ويتمم خط الاندماج بمراحله الثلاث.

فعندما يخرج الطفل إلى الحياة تكون الأشياء والأشخاص والأفكار في عوالمها الثلاث كلها غريبة عنه.

فيده هي بمثابة أداة تسلّية كما يسلّيه المصباح المعلق فوق مهده ، وقد تخدش خده .. وبها يكتشف عالم الأشياء حوله. وفي هذه المرحلة لايكون لدى الطفل أية فكرة عن عالم الأشخاص ، لأنه لايكون قد تعرف بعد على وجه أمه التي لايعتبرها إلا الثدى الذي يطعمه .. وهو أيضاً لايتعرف على نفسه ككينونة مستقلة لأنه ليس له شعور محدد عن ذاته.

ثم يبدأ بصره بالتعرف على وجوه الناس . أولها وجه أمه ووجه أبيه ثم أخوته ويظل حتى العام الثالث أو الرابع غير متماسك .. وحتى في عامه السادس يعتبر يوم دخوله المدرسة أقسى تجربة له في عالم الأشخاص الغريب عليه.

ويكون اندماجه تدريجيا وبيطء بحسب قدرته على الألفة ، التي ترى نظرية جونج Jung في علم النفس أن " النموذج الإنساني الذي ينظر إلى العالم الخارجي يكتشف عالم الأشخاص أسرع من النموذج الذي ينظر إلى العالم الباطني". أما عالم الأفكار فيكون اكتشافه بالنسبة للنموذجين بعد عالم الأشخاص. ومسيرة الطفل في اندماجه داخل المجتمع مسيرة بيولوجية ومنطقية في ذات الوقت.

ومن الوقت الذي يتمكن فيه من إقامة روابط شخصية مع مفاهيم تجريدية سنراه يدخل في عالم الأفكار وهو الذي يهمنا أن نتناوله هنا بالتحليل.

وقد يتعرض الطفل للفشل مصحوباً أحياناً باليأس – أمام مسألة صغيرة وهو يقتحم باب هذا العالم. وينبغي مراقبة الطفل لكي نقدر مجهوده ، غير أن هذه المآسي الصغيرة تمر غير ملحوظة من جانب الأسرة أو المدرسة. وقد يتذكر الطفل مرات اصطدامه أمام صعوبة معينة – لم يكن قد تغلب عليها بعد – أو يكون عقله وفكره قد أوضحا له الحل المناسب.. وهذه الفترة تقع بين سن السابعة والثامنة حين يضع قدمه في عالم الأفكار دون الاعتماد على غيره. وهي خطوة فاصلة على طريق اندماجه الاجتماعي.

وعندما يتجاوز عالم الأفكار يضع قدمه في عالم ثقافي أو في أنظمة أيديولوجية

تتميز بين المجتمعات. فمنها المجتمعات الملتزمة بأفكار معينة ومنها المحايدة ومنها التى فى طريقها إلى الأفول. وهذا الكشف يطور كيانه النفسي وينعكس على كيانه الجسدى. فهناك مظاهر خارجية تفرق بين الأمى وبين من قرأ فكرة أو نقلها أو عبر عنها.

والخط المميز فى وجه الطفل الصغير هو الفم المفتوح ، وبمقدار تقدمه فى السن وبتأثير من طاقته الداخلية فهو يقفل فمه.

ولقد أتيحت لى فرصة إجراء هذه التجربة مع مجموعة من الجزائريين الأميين الذين تعهدت بمحو أميتهم بفرنسا عام ١٩٣٨. إذ لاحظت أنه بمقدار تقدم عملية التعليم كلما كانت النظرة الحيوانية فى عيون تلاميذى تتحول بالتدريج إلى نظرة إنسانية تنم عن فكرة داخلية أو عن وجود فكرة. فضلا عن أن شفاههم كانت تنضم أكثر فأكثر.. وتتغير ملامح الوجه بشكل ملحوظ. وفى رأيى أن هذا التغيير يصلح لقياس ملامح الوجه عند الذين يهتمون بالعلاقات النفسية البدنية. إذ تتحدد بهذه العلامات درجة اندماج الفرد فى دخوله عالم الأفكار.

ويستمر المسار خلال مراحل الحياة الأخرى – النضج والشيخوخة ومابعد الشيخوخة – لكى يتحول رويداً رويداً إلى خط عدم الاندماج ويعود الإنسان أدراجه ، وينتقل فى الاتجاه العكسي ويترك على التوالى:

١ – عالم الأفكار عندما يفقد القدرة الخلاّقة.

٢ – عالم الأشخاص باللامبالاة أو بكراهية الناس.

٣ – عالم الأشياء نتيجة الضعف وعدم الإقبال عليها.

ثم يرحل عن الحياة فى نهاية خط السير ﴿ الله الذى خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ، ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة – الروم ٥٤﴾ .

أما طوال حياة الإنسان فتتعايش العوالم الثلاثة جنباً إلى جنب مع تفاوت بينها بحسب نوع الفرد ونموذج المجتمع وبحسب ماإذا كان عالم الأفكار يدور حول الأشياء أو العكس.

الفصـــل الثالث
المجتمع والأفكـــــار

مرحلة ماقبل التحضر.

مرحلة التحضر.

مرحلة مابعد التحضر.

على الصعيد التاريخي لامانع من الإشارة إلى أوجه التشابه بين بعض خصائص النمو العقلي عند الفرد وبين النمو النفسي الاجتماعي في المجتمع ، والذي يبدو أنه يمر هو أيضاً بثلاث أعمار : ١ – عمر الشئ ٢ – عمر الشخص ٣ – عمر الفكرة. غير أن الانتقال هنا من مرحلة إلى أخرى ليس بالوضوح الذي نراه عند الفرد.

إن لكل مجتمع عالمه الثقافي المتعدد الجوانب مهما يكن مستوى تقدم المجتمع. وفي النشاط المشترك للمجتمع يتداخل عالم الأشياء مع كل من عالم الأشخاص وعالم الأفكار. وهذا النشاط ينطوي بالضرورة على بواعث ذات صبغة معنوية وأفكار تقنية ، وعلى الطرق التنفيذية .

ولايتميز المجتمع النامي فحسب بقلة الوسائل المادية (الأشياء) وإنما أيضاً بقصور في الأفكار يتجلى بصفة خاصة في طريقة استخدامه للأشياء بفاعلية أو بعدم فاعلية مع عجزه عن إيجاد غيرها. فضلا عن تميزه بطريقته في طرحه لمشاكله أو عدم طرحها على الإطلاق.

فمثلا الأرض هي الوسيلة المأمونة – كما يقول الاقتصاديون الذين يدرسون مشاكل العالم الثالث – لضمان انطلاق مجتمع من مرحلة أولية إلى مرحلة ثانوية (مثل الصين الشعبية منذ ١٩٥١). إلا أن أكثر الأراضي خصوبة في العالم هي أراضي العراق وأندونيسيا ومع ذلك لم يتمكن البلدان من الانطلاق لوجود قصور حقيقي في الأفكار يظهر أثره في المجال السياسي والاقتصادي على شكل خمول معوق. وهي من الخصائص النفسية الاجتماعية التي يتميز بها العالم الإسلامي في الوقت الحاضر. يمكن للمؤرخين والاقتصاديين وعلماء الاجتماع تناولها كل من زاويته الخاصة.

وسنحاول هنا تقديم تفسير نفسي اجتماعي معتمدين على نظرية الأعمار الثلاثة.

فكل مجتمع تاريخي بصفة عامة – معاصر أو مندثر – يحتل مركزاً في مراحل

التطور التى يقسمها التاريخ إلى ١ - مرحلة المجتمع قبل التحضر ٢ - مرحلة المجتمع المتحضر ٣- مرحلة المجتمع بعد التحضر.

وقد جرت عادة المؤرخين على التمييز بين المرحلتين الأولى والثانية مع عدم الاهتمام بالتمييز بينهما وبين المرحلة الأخيرة. باعتبار أنهم يرون أن مجتمع مابعد التحضر هو مجتمع يواصل سيره على طريق حضارته. وهذا خلط مؤسف يترتب عليه أنواع أخرى من الخلط والالتباس ، وذلك بتشويه المقدمات المنطقية التى يرتكز عليها الاستدلال فى مجال الفلسفة والأخلاق ، وفى مجال الاجتماع ، وحتى فى مجال الاقتصاد والسياسة ، عندما يزعم البعض أنه استناداً إلى مثل هذه المقدمات يمكن طرح مشكلات البلاد النامية وإيجاد الحلول لها.

وقد يُستغل هذا اللبس من جانب المتخصصين فى الصراع الفكرى فيحاولون أو يكلفون أحد تلاميذهم - بإقناعنا - بقياس منطقى خاطئ - مثلا بفشل الإسلام فى إيجاد مجتمع متقدم.

ولتبديد هذا الغموض ، نقرر أن مجتمع مابعد التحضر هو مجتمع يسير إلى الخلف بعد أن انحرف بعيداً عن طريق حضارته وانقطعت صلته بها. وقد أدرك ابن خلدون هذه الظاهرة وقام بتوضيحها. وهى النقطة التى بدأ منها عصر التخلف الحضارى فى العالم الإسلامى ، أى انفصام دورة الحضارة الإسلامية.

أما إذا حاولنا تتبع تطور المجتمع الإسلامى منذ نشأته التاريخية. فقد كان المجتمع العربى قبلياً صغيراً يعيش حياة ثقافية محدودة ، كانت العقيدة فيها تدور حول أشياء لاحياة فيها وهى أوثان الجاهلية.

وتمثل البيئة الجاهلية مرحلة "عصر الأشياء" فى المجتمع أصدق تمثيل حيث عالم الأشياء ذاته فقير للغاية ، والأشياء ذاتها بدائية (مثل السيف والرمح والجمل والحصان والخيمة والأدوات المنزلية البدائية .. إلخ) . وعالم الأشخاص منحصر فى حجم القبيلة.

أما عالم الأفكار فى هذا المجتمع فقد أوضحتها قصائد المعلقات .. وهو فى جملته بسيط .. فقد كان الشعر الجاهلى يشيد بانتصار قبيلته " أيام العرب" ، أو يتغنى بذكرى حبيبته ، أو يبكى على بطل سقط فى ساحة القتال (كما فعلت الخنساء).

وهكذا كان وجه المجتمع الجاهلى المنطوى على نفسه ، والذى كانت تتلاشى على حدوده حركات المد والجزر التاريخية للأمم العظيمة التى جاورته مثل الدولة البيزنطية والدولة الفارسية ومملكة الحبشة.

وفجأة سطع النور في غار حراء ، وحمل وميض الضوء رسالة بدأت بكلمة "اقرأ" مزقت ظلمات الجاهلية ، وقضت على عزلة هذا المجتمع الجاهلي. وبزغ مجتمع جديد بدأ يتفاعل مع الدنيا ومع التاريخ ، وشرع في هدم مابداخله من حدود قبلية ليؤسس عالمه الجديد من الأشخاص ، حيث أصبح كل إنسان يحمل رسالته التي تعلن عن ظهور عالم ثقافي جديد ، تسخّر فيه الأشياء من أجل الأفكار . وتأسس في البداية عالم الأشخاص فيه على نموذج فريد يمثله مجتمع المهاجرين والأنصار الذي جمعتهم في المدينة الأخوة في الله.

ولقد جسّد هذا المجتمع النموذج كمال الفكرة الإسلامية ، وكان بالنسبة للعصور اللاحقة الصورة المثالية التي يجد فيها المسلمون القدوة والإلهام والذكريات الغالية. وكانت خطوات هذا المجتمع الجديد متجهة نحو عالم الأفكار في مرحلة الأفكار – من خلال عالم الأشخاص هذا ، أي من خلال هذه العمر في الإنسان .. واستمر الامتداد كما يحدث في حالة الفرد ..

حتى إذا بلغ نقطة الانتكاس والارتداد ، تجمدت الفكرة ورجع المجتمع الإسلامي على أعقابه ، ومرّ بالأعمار السابقة في الاتجاه العكسي .. ولم يعد عالم الأشخاص فيه كما كان في النموذج الأصيل الأول ، وإنما أصبح على صورة المتصوفين ، ثم المخادعين والدجالين من كل نوع ، لاسيما في نوع "الزعيم".

أما عالم الأشياء فقد اكتظ بالأشياء (شأن مجتمعات الاستهلاك) واستبدت الأشياء بالعقول والنفوس. وقد تكون الأشياء تافهة ولكنها براقة. وقد تتكلف الكثير إذا كان يتعين شراؤها من الخارج. ومع ذلك فهي أشياء خالية من الحياة ومن الحركة الديناميكية الاجتماعية.

وهكذا أصبح المجتمع الإسلامي المتقهقر في عصر مابعد الحضارة . وذلك منذ عدة قرون.

الفصـــل الرابع

الحضارة والأفكـــــار

مرحلة الروح.

مرحلة العقل.

مرحلة الغريزة.

الحضارة هي انتاج فكرة حية تطبع على مجتمع معين - يكون في مرحلة ما قبل التحضر - الدفعة الحضارية التي تجعله يدخل التاريخ ، فيبني نظامه الفكري طبقاً للنموذج المثالي الذي اختاره ، فتتأصل جذوره في محيط ثقافي أصيل يتحكم في سائر خصائصه التي تميزه عن الثقافات الأخرى وعن الحضارات الأخرى .

ودور الأفكار في الحضارة لا يقتصر على مجرد الزينة والزخرفة (كما هو الحال في عصور مابعد التحضر) ، وإنما يكون للأفكار دور وظيفي ، باعتبار أن الحضارة هي القدرة على القيام بوظيفة أو مهمة معينة. وبالتالي يمكن تعريف الحضارة بأنها جملة العوامل المعنوية والمادية التي تتيح لمجتمع ما أن يوفر لكل فرد من أعضائه جميع الضمانات الاجتماعية اللازمة لتقدمه.

ولقد كان للفكرة المسيحية الفضل في إدخال أوروبا التاريخ. ومن هنا بدأت في بناء عالم الأفكار ، وابتداء من عصر النهضة اكتشفت العالم الإغريقي ، فتعرفت على سقراط باعث الأفكار ، وأفلاطون مؤرخ الأفكار ، وأرسطو منظم الأفكار. وبرغم أن أوروبا عثرت على هذا العالم الاغريقي في آثار الحضارة الإسلامية إلا أنه اصطبغ بالصبغة المسيحية ابتداء من زمن توماس الإكويني.

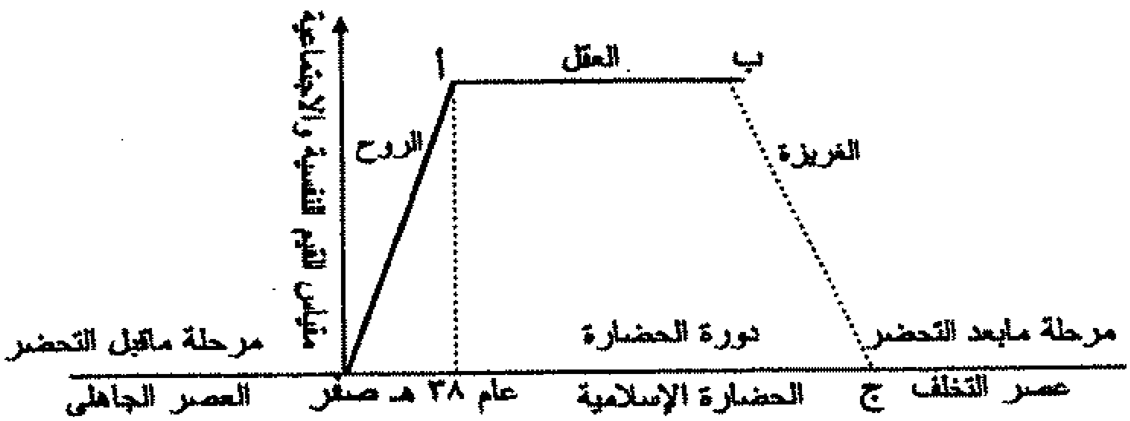
ولايحقق الفرد ماتصبو إليه نفسه إلا بفضل إرادة وقدرة نابعتين من المجتمع الذي هو عضو فيه. أما إذا ركن هذا الفرد إلى قدرته وإرادته وحدهما ، وأصبح منعزلاً فاقد الاتصال والارتباط بالمجتمع - أو قصر المجتمع في تقديم العون من إرادته وقدرته للفرد وهو يعيش في رحابه - فإنه في هذه الحالة يشبه القشة التي في مهب الريح.

أما وسائل التزويق الأدبية التي يعتمد عليها الأديب الروائي ليقدم لنا صورة أدبية لحياة هذا الفرد المنعزل ، فإنها تختلف عن الحقيقة اختلافاً بيّناً .. فالمأساة الحقيقية التي عاشها البحار الانجليزي بعد أن غرقت سفينته ، وعُثر عليه بعد أربع سنوات على

جزيرة منعزلة، وأعيد إلى انجلترا مرتدياً ملابس صنعها بنفسه من جلد الماعز الوحشي.. هذه المغامرة هي التي أوحت للأديب بقصته بعد مايقرب من قرن .. أما المأساة ذاتها فقد نسيتها الأجيال التي قرأت القصة حيث طواها النسيان.

إن إرادة المجتمع وقدرته تضفيان على وظيفة الحضارة موضوعية وفعالية – أي جملة من العوامل المعنوية والمادية اللازمة لتحقيق تقدم الفرد – وتصبح هذه العوامل موضوعية عندما تتحول إلى سياسة وتشريع يمثلان عالم الأفكار على الصعيد الاجتماعي والأخلاقي في هذا المجتمع تمثيلاً مباشراً.

وهي تتغير حسب الأطوار التي تمر بها الحضارة كما يوضح ذلك الرسم البياني التالي :



والرسم يوضح القيم النفسية الزمنية لإحدى الحضارات ، ويبرز الخطوط الرئيسية لتقلبات هذه القيم خلال الأطوار الحضارية المختلفة.

إن إرادة المجتمع التي تطلق فعالية العوامل المعنوية ، تنشأ عند نقطة الصفر وتبلغ ذروتها عند هذه النقطة باعتبارها بداية المرحلة الروحية التي يواجه فيها المجتمع الناشئ مشاكله بضغط حاجاته من جهة ، وباستخدامه لوسائله المتواضعة لتغطية أوسع قطاع ممكن منها من جهة أخرى ، وهذه المرحلة تتميز بأروع صور الزهد والتقشف التي ضرب الرسول ﷺ فيها أروع الأمثلة في حياته الشخصية والأسرية ، وزخرت بمفاخر الكرم والتضحية من جانب الصحابة الذين جندوا أموالهم لخدمة الإسلام والمسلمين، مثل ابو بكر وعثمان وغيرهما ..

وتكون قدرة المجتمع في هذه المرحلة المبكرة في طور التكوين ، علماً بأن هذه القدرة هي التي تطلق فعالية العوامل المادية ، وتؤهل المجتمع لأداء وظيفته في العون

والمساعدة.

وعندما تعرض المجتمع الإسلامي للتهديد بعد وفاة الرسول ﷺ ، اضطر أن يدافع عن شرع الله بقوة السلاح في حروب الردة التي كانت تستهدف إبطال الزكاة وهي حق الفقراء .. ولولا أن هذا المجتمع احتفظ بإرادته كاملة أي بحماسته الذاتية التي استمدها من روح القرآن ومن تعاليم الرسول ﷺ لما تمكن من مواجهة هذه الردة.

إن هذه الحيوية هي التي تميز المجتمع في بداية حضارته ، وتفرق بينه وبين مجتمع آخر لا يكون في مرحلة ماقبل التحضر ، أو مرحلة مابعد التحضر ، أو حتى في مرحلة التحضر (الموضحة في الرسم بالحرفين أ ب).. أي عندما يتوازن عالم الأشياء مع عالم الأفكار ، ثم عندما يتفوق "الشيء" تدريجيا على "الفكرة" (ولاسيما في مرحلة ب ج).

وفي عصرنا الحاضر نلاحظ أن هذه الحماسة هي التي أتاحت للاتحاد السوفيتي الانطلاق بعد التجربة الستاخانوفية Stakhanovisme ، وهو الذي يميز كذلك انطلاق الصين الشعبية بعد الثورة الثقافية.

لقد كان لهذه الحماسة الفضل في طبع أكثر المراحل حركة ونشاطاً في مرحلة تطور التكوين والاندماج التي مرت بها المجتمعات الناشئة .. وهذا التوتر هو فكرة دافعة لايمكن بثها بنظرية أو بإرشاد تعليمي أو بدعوة علمية. ولقد حاول المؤرخ توينبي تفسير الظروف المتميزة التي تظهر فيها هذه الحماسة بأنها الظروف التي تضطر فيها مجموعة من الناس إلى الرد على احدى التحديات بعمل جماعي ثقافي مخطط. غير أن هذا التفسير لايبين لنا كيفية تكوين المجتمعات التاريخية الحاضرة والتي لايتجاوز عددها أصابع اليد.

فمثلا لانعرف لماذا لم يقم المجتمع البوذي في بداية العهد المسيحي - بالرد على "تحدي" النهضة التي كانت تتمثل في "الفكرة الفيدية" 'Pensée Védique' التي قضت على المجتمع البوذي بالنفي إلى بلاد الصين.. ولانفهم كذلك لماذا لم ينتفض هذا المجتمع في القرن العشرين - وهو في وطنه الجديد - ضد تحدي الفكرة الماركسية التي جلبها ماوتسي تونج ، والتي محته إلى الأبد من خريطة العالم الأيديولوجية.

أما ماهو جدير فعلا بالملاحظة في تجربة المجتمع الإسلامي الحاضر ، فهو عجز هذا المجتمع عن أن يستمد شيئاً من عالمه الثقافي الممثل في صفوة رجاله الذين نالوا تعليمهم في الجامعات الغربية ، ولامن الأيديولوجيات العملية في البلاد العربية المسماة الايديولوجيات الثورية. فضلا عن أنه لم يقتبس شيئاً من صرامة التفكير الذي نقله لنا عصر ديكارت.

بينما سبق أن نجحت الفكرة الإسلامية الخلاّقة في أن تنشر منذ أربعة عشر قرناً

شعلة الحضارة فى الجزيرة العربية وفى قارات نائية .. وجمعت الشعوب الإسلامية فى هذا العمل المخطط المنسق ألا وهو الحضارة الإسلامية التى امتد زمنها حتى سقوط بغداد وسقوط الأندلس .. بل عندما انتكس المجتمع الإسلامى فى عصر التخلف عند النقطة ج ، نجحت هذه الفكرة الخلاّقة فى إمداده بقوة مقاومة العدوان الاستعمارى واسترداد استقلاله.

وترتبط المعجزات التاريخية الكبرى دائماً ارتباطاً وثيقاً بالأفكار الخلاّقة .. وإذا كان التفسير الذى يعتمد على العوامل الخارجية لايكفى لتوضيح منشأ هذه القوة فى كل حالة من الحالات ، فيتعين مع ذلك أن نلاحظ أن هذه القوة هى التى أخرجت تلك المجتمعات من العدم ونثرتها على مسرح التاريخ وظلت المجتمعات قائمة طالما أن هذه القوة كانت تساندها.

الفصـــل الخامس
الطاقة الحيوية والأفكـــار

•إطلاق الطاقة تدمير للمجتمع.

•إيقاف الطاقة تعجيز للمجتمع.

•التوسط في الطاقة تعمير للمجتمع

على الفرد أن يلبى حاجاته الحياتية سواء كان منعزلاً أم كان من سكان المدن الكبرى.. وذلك بأن ينفق من طاقته الحيوية التى وهبها الله له. ولما كانت هذه الطاقة فى حالتها البدائية فظة لاتصلح للحياة الاجتماعية ، فإن عليه أيضا أن يحقق انسجامها الاجتماعى بما يتفق مع حاجاته ، وبما يتفق مع حاجة المجتمع الذى يندمج فيه.

والمجتمع فى الواقع يفرض بعض القواعد والضوابط والقوانين والتقاليد (أى بعض الأذواق والآراء) ليست بأقل حيوية للفرد. ولهذا فإن التطور التدريجى لاندماج الفرد اجتماعياً يتم بما يتفق مع طبيعة الفرد واحترام جملة أصول الحياة فى المجتمع ، مما يتخذ شكل عقد اجتماعى بين المجتمع والفرد. وانطلاقاً من هذه النقطة يأخذ هذا التطور معنى محدداً ودقيقاً باعتباره تكييفاً لطاقة الفرد الحيوية.

ولقد ألقت مدرسة بافلوف Pavlov أولى الأضواء على التكيف بصفة عامة ، وأخرج لنا "سرج تاخوتين" Serge Takhotine - أحد أتباعها - كتاباً هاماً بعنوان "اغتصاب ضمير الجماهير" قدم فيه تحليلاً وتصنيفاً للطاقة الحيوية سماها "دوافع" Pulsions . والذى يهمنا التحقق منه هى الحدود التى تعمل أو التى ينبغى أن تعمل فى إطارها هذه الطاقة الحيوية حتى يتحقق تكييفها مع جميع أوجه النشاط المنظم للمجتمع.

فلو افترضنا إلغاء أحد أشكال الطاقة التى يسميها الكتاب " الدافع الغذائى أو دافع التملك أو الدافع التناسلى" فإن جميع الإمكانيات البيولوجية فى الحياة الاجتماعية تبطل فى نفس الوقت. أما فى حالة العكس فرضاً أى إذا أطلقنا هذه الطاقة من كل قيد ، فإن نظام المجتمع سيصطبغ بصبغة طبيعية محضة ، وسيعيش الفرد فى ظل قانون الغابة حيث الحياة للأقوى لا للأفضل. إذن إلغاء الطاقة الحيوية يهدم المجتمع ، وإطلاق العنان لها يهدمه أيضاً. لهذا ينبغى أن تعمل الطاقة الحيوية داخل هذين الحدين.

وهنا يثور سؤال : ماهى السلطة التى تخضع لها الطاقة الحيوية وتحتويها داخل

حدودها؟

هذه السلطة مرتبطة ارتباطا وثيقاً بالعوامل التى لها دور رئيسى فى تغيير مجتمع فى مرحلة ماقبل التحضر وتحقيق الحضارة. والمجتمع العربى الجاهلى خير مثال لهذا التطور.

إذ كانت الطاقة الحيوية فيه غير مكيفة تقريباً. فقد كانت فى حالة بدائية لاتنسجم مع متطلبات الحياة الحضارية (العالم الثقافى خالى تقريباً من أى مبدأ ضغط اجتماعى فيما عدا بعض قواعد الشرف والتضامن القبلى ، وبعض العقائد التى جعلت منها قريش سلعاً تباع وتشترى).

وعندما تحول هذا المجتمع البدائى إلى مجتمع متحضر ، لم يكن هناك أى حادث جديد قد طرأ يفسر هذا التغيير سوى ظهور القرآن الكريم.. وبظهوره ظهر عالم الثقافة مع الفكرة القرآنية ، وتلازم القرآن مع ظهور الحضارة . فقد طوعت الفكرة الإسلامية الطاقة الحيوية التى كانت كامنة فى المجتمع الجاهلى ، وأخضعتها لمتطلبات المجتمع المتحضر.. أى أنها حققت هذا التكيف الذى نظم القوى البيولوجية للحياة ووضعها فى خدمة التاريخ.

هذه الصورة تتكرر فى منشأ جميع الحضارات ، أى اضطراد تكامل الطاقة الحيوية بما يتفق مع الظروف التى تؤهلها لوظيفتها التاريخية ، غير أن القدرة على التوافق والانسجام ليست دائما بنفس الدرجة فى الدورات المختلفة ، ولا فى مختلف المراحل من نفس الدورة الواحدة .. فضلاً عن أن ظروف هذا الانسجام أو عدمه ليست متشابهة فى جميع الحضارات.

فمثلاً نرى المجتمع المسيحى يحاول إلغاء الدافع الجنسى بدلاً من احتوائه فى الحدود العملية .. فهذه المثالية المتسامية (رغم تعارضها مع المقاصد التاريخية) نشأت عنها نماذج ممتازة من البشر – هم القديسون – بينما تركت الجموع الغفيرة تعيش فى هوس جنسى مع كل مايترتب عليه من ممارسات ، ومن إقامة معارض ماجنة للصور الجنسية فى كل جهة من بلاد الغرب.

من هذا يتضح أن القدرة على تطويع الطاقة الحيوية لاتكمن فى اختيار عشوائى بين التشدد والتحرر.. ولا فى التوفيق بين حلين متطرفين .. وإنما يتوقف قبل كل شئ على القوة أو الفكرة الحية التى تساند الحل وعلى درجة قوتها فى نفس الوقت.

ولتقريب ذلك ، ندرس حالة تكيف الطاقة الحيوية فى مجتمعين من جهة ، ثم فى مجتمع واحد فى عصرين مختلفين من جهة أخرى.

فالمثال الأول فى تاريخ تشريع تحريم الخمر فى المجتمع الإسلامى وفى المجتمع الأمريكى :

فقد طرح المجتمع الإسلامى هذه المشكلة على مراحل:

١ - مرحلة إدخال المشكلة فى ضمير المجتمع الإسلامى (أى المرحلة النفسية من الحل).

٢ - مرحلة الحد من شرب الخمر (أى تخليص الفرد من الإدمان).

٣ - مرحلة التحريم النهائى بإعلان الحل القانونى الفاصل.

ولقد شملت فى أمريكا أيضا نفس المراحل :

١ - عام ١٩١٨ أدخلت الصحافة المشكلة إلى الرأى العام.

٢ - عام ١٩١٩ أدخلت المشكلة فى الدستور تحت عنوان "التعديل الثامن عشر".

٣ - فى نفس العام سرى مفعول التحريم باسم "إجراء فولستد Volstead".

والجدير بالملاحظة هنا هو الفرق فى القدرة التشريعية على التكيف:

فمنذ أربعة عشر قرناً لم يترتب على تحريم الخمر أية هزة فى المجتمع الإسلامى الناشئ. بينما كانت الزلزلة فى المجتمع الأمريكى الذى عاصر هذا الإجراء - من العنف بحيث هدمت كل الجسور وقلبت جميع السدود ، ونتج عنها أسوأ ردود الفعل (التجارة المحظورة ، تكوين عصابات التهريب ، تسمم الجمهور بخمور مغشوشة..) مما أدى إلى نسخ قانون التحريم بالتعديل رقم ٣٣ لسنة ١٩٣٣ واستئصال فكرة تحريم الخمر نهائيا من عالم الثقافة فى المجتمع الأمريكى لأن فكرة التحريم هذه لم يكن لها جذور فى عالم الثقافة مما أدى إلى فشلها فشلاً ذريعاً.

أما التراخى الملاحظ فى المجتمع الإسلامى الحالى فى مواجهة شرب الخمر.. فمع ذلك ، ومهما كان نوع التشريع السائد اليوم فى هذا المجتمع ، فإنه لم يطرد فكرة "تحريم الخمر" من عالمه الثقافى .. حتى ولو لم يأخذ هذا التحريم قوة القانون فى الحياة الواقعية فى بعض البلاد المسماة " تقدمية " ، فإن فكرة التحريم تحتفظ بقدرتها النسبية على التكيف فى المجتمع الإسلامى الذى لم تعد تتوفر لديه اليوم سوى إرادة أفراده وعزيمتهم لممارسة الضغط الاجتماعى المطلوب فى مواجهة انحرافات الطاقة الحيوية...

ونخلص من ذلك بنتيجتين :

١ - إن قدرة أية فكرة على التكيف ليست متساوية فى مجتمعين لهما أصول ثقافية مختلفة (فهى أضعف فى المجتمع الأمريكى الموجه نحو عالم الأشياء ، وأقوى فى

المجتمع الإسلامي الذي يدور نسبيا حول القيم الأخلاقية).

٢ - في خط تطور المجتمع الإسلامي تتغير هذه القدرة من مرحلة إلى أخرى .. فتبلغ ذروتها في مرحلة النشأة الأولى .. ثم تتدرج في التناقص عندما تستبدل الفكرة الأصلية بأفكار أخرى مكتسبة.. ثم عندما تستبدل الأفكار المكتسبة بأشياء ، حيث تنطلق الغرائز ، ويتوقف التكيف الأصلي ، ويتحول العالم الثقافي إلى عالم للأشياء. وعندئذ تنطلق الطاقة الحيوية بعد أن يُترك لها العنان -- لتدمر المجتمع بإلغاء نظام روابطه الاجتماعية ، وتحطم عملها المنسق والمنظم من أوجه النشاطات الجماعية والفردية المتناقضة. وهذا هو مايسميه الماركسيون " صراع الطبقات" . ومهما تكن التسمية فإنها نهاية إحدى الحضارات.

فالمجتمع الذي فيه عقول خاوية أو محشوة بأفكار ميتة ، وفيه ضمائر خربة وروابط متهدمة (لا اتحاد ولا التحام بينها) لايستمر في مسيرته الحضارية..

الفصـــل السادس
عالـــم الأفكــــار

•مبررات التصرفات.

•مناهج التصرفات.

يؤدى مجتمع ماقبل التحضر نشاطاته البدائية معتمدا على حوافز وطرق تنفيذية معينة تمثل عالمه الثقافى المتواضع الذى يشتمل على أفكار اساسية (نماذج مثالية Archetypes) يتوارثها جيل بعد جيل، تغذى نشاطه وتكون قاعدته الثقافية ، وتعكس أخلاقه فى هذه المرحلة.. كما يشتمل أيضا على أفكار عملية يضيف إليها كل جيل تعديلات تتناسب مع ظروفه التاريخية ، توجه هذا النشاط طبقاً لأدق وأيسر طرق الانجاز فتمثل مجموعة مناهجه التقنية.

وعند بوادر التحضر يتعرض هذا المجتمع لتغيرات تتناسب مع ثورة ثقافية تؤثر على مناهجه التقنية تأثيراً محدوداً ، ولكنها تقلب أخلاقه من اساسها . ولايطرأ هذا التغيير على عالم الأشياء وإنما يصيب عالم الأشخاص من جذوره ، فتتجه المناهج التقنية إلى الأشخاص وتصبح مناهج تقنية اجتماعية يتحدد على أساسها نوعية العلاقات الاجتماعية الجديدة ، طبقا لميثاق جديدءإما يكون قد نزل به الوحى من السماء ، وإما يكون من وضع الإنسان (مثل دستور Iassa الذى وضعه جنكيز خان ، ودستور فرنسا عام ١٧٩٣).

ولكن الشرط الأول لضمان مجموعة العلاقات الاجتماعية الجديدة – كما رأينا – هو رسم حدود لطاقة المجتمع الحيوية.

وهناك تدرج فى عالم الأفكار داخل المجتمع : فهى إما أفكار من شأنها تغيير أحوال الناس ، تملك القدرة على تكييف الطاقة الحيوية عند بوادر الحضارة ، ويتأسس عليها عالم الأفكار فى المجتمع الجديد.. وتتوقف قدرتها – فى درجة التحويل وفى دوامه– على ماإذا كان مصدرها قدسياً أم وضعياً .. وإما افكار تختص بتحول الأشياء تملك القدرة على تكييف المادة فى الطور الثانى من الدورة.

والواقع أنه لايوجد عالم ثقافى وضعى مائة بالمائة ، لأنه لن يستطيع أن يقدم حوافز على درجة من القوة بحيث تتمكن من مساندة المجتمع الناشئ فى خطواته الأولى، تلك الظاهرة لاحظها موسسو المجتمعات المدنية.

فمثلاً أضاف روبسبيير – بعد فوات الأوان – فكرة " الكائن الأعظم" إلى ايديولوجية الثورة الفرنسية.. ثم بعد فشل الفكرة استبدلتها فرنسا عام ١٧٩٧ بفكرة "الرجل الإله" تجسدت فى شخصية نابليون.

وهذا الانحراف إن دل على شئ فإنما يدل على أن أى نظام ناشئ يبحث دائما عن سند له فى القيم الروحية المقدسة.

والتاريخ يعلمنا أن العالم المبنى فى الأصل على القيم الروحية ، يميل دائما إلى استبعاد صفة القداسة من مبادئه بمقدار تقدمه فى المرحلة الثانية التى تتعلق بالمشاكل التقنية والتوسع. ويمكن تفسير هذه الظاهرة بطريقتين : إما على أنها " تقدم " من وجهة نظر الاقتصاديين باعتبارها بداية انطلاق الطاقة من حدودها ، وإما – كما يقول المؤرخون الفلاسفة – إنها بداية الانحراف أى الشيخوخة. ويلتقى كلا هذين التفسيرين المتناقضين عند نقطة واحدة ، هى قانون ضرورة تحول الطاقة الذى يتحكم فى التاريخ ويسيطر على علم الطبيعة Physique ، وينص على وجوب حدوث انطلاق للطاقة الكامنة ليتم انتاج العمل. ويطلق علماء الميكانيكا عبارة "لحظة" القوة على الوقت أو الظرف الميكانيكى الذى يكون فيه الدافع كافياً لتحريك المقاومة أى لإتمام عمل معين.

والفكرة الحية لها لحظاتها.. التى تتحدد عندما يكون إطلاق الفكرة لنشاطنا مطابقاً تماماً لصورة الكمال الذى يرسمها نموذجها المثالى فى العالم الثقافى الأصلى. عندئذ يصل سلطانها على الطاقة الحيوية إلى الذروة. ولقد مكن هذا السلطان بلال بن رباح من تحدى الجاهلية كلها برفع سبابته إلى أعلى معلناً عن تمسكه بوحدانية الله – رغم ماكان يعانيه من صنوف التعذيب..

ولكل الأفكار لحظة إشراقها .. تتحدد هذه اللحظة وقت دخول الأفكار العالم الثقافى ، سواء كانت الأفكار تتعلق بالنظام الأخلاقى أم بإدارة النظام المادى.

مثل لحظة أرشميدس عندما صاح "وجدتها" .. وصيحة موسى عليه السلام عندما آنس النار .. وصيحة "نيتشه" عند اكتشافه قانون "العود الأبدى" Loi de l'éternel retour .. و صرخة كرستوف كولومبس و رجال سفينته عندما اكتشفوا جزر الهند الغربية، و أثبتوا فكرة كروية الأرض ، و دخول هذه الحقيقة العالم الثقافى.. و كذلك صيحة باريس باعلان الحرية و الأخوة والمساواة، فسقطت الباستيل عام ١٧٨٩، و تهاوى عرش بطرس الأكبر فى روسيا عام ١٩١٧. لقد كانت هذه الصرخات اعلانا لظهور فكرة فى أوج " وقتها " .

و لكن الزمن يعمل عمله فى النفوس و فى العقول، و يطمس معالم صورة

النماذج المثالية فى القوالب، فتتغير الأشكال التى تخرج من القوالب و تصبح أشكالا باهتة.. و هذا الاختلاف أو هذا الغدر يدوّى فى كل نشاطنا، و يعرض هذا النشاط للانتقام من جهة الأفكار الأصلية المخذولة.

و قد يكون الانتقام فى غاية العنف على الصعيد السياسى، أو فورياً كما هو الحال فى المجال التقنى عندما يحدث خطأ فى تصميم احدى الماكينات أو فى بناء أحد الجسور فتنفجر الماكينة أو ينهار الجسر.. و قد يحدث أن تنهار أيضا المجتمعات والحضارات و الممالك بنفس الطريقة.. كالكوارث التاريخية و سقوط الأندلس نتيجة خطأ فى سياسة مجلس شيوخ قرطاجنة.

و لا مفر من احترام علاقة الأفكار بمقاييس النشاط حتى لا تصادم الأفكار العقل أو تصبح مستحيلة ، و هذه العلاقة ترتبط بأنواع من المجالات :

- بالمجال الأخلاقى و الأيديولوجى و السياسى ، (و قد يضم أيضا المجال الفسيولوجى، اذا أخذنا فى الاعتبار علم تحسين النسل Eugenisme) ، و ذلك بالنسبة لعالم الأشخاص.
- مجال المنطق و الفلسفة و العلم بالنسبة لعالم الأفكار .
- بالمجال التقنى و الاقتصادى و الاجتماعى بالنسبة لعالم الأشياء.

و إذا فسد جزء من هذه الأجزاء نتيجة تأثير أى عامل، ينبغى أن نتوقع نتيجة لذلك، إما فى أحكام المجتمع و فى أوجه نشاطه، و إما فى سلوك الأفراد فى صورة انحراف يدعو أحيانا إلى السخرية..

ففى معرض للصور الزيتية أقيم بلوس أنجلوس عام ١٩٥٧ كانت اللوحة الفائزة بالجائزة لوحة رسمها ببغاء أعور تركه صاحبه يتخبط فى الألوان بجوار قماشة الرسم، وكان صاحب اللوحة هو الذى كشف هذا السر بعد انتهاء المسابقة.. ولكن كم من حالات أخرى لا يمكن الاعتراف فيها بالحيل التي وقعت، إما نفاقاً و إما لفقد الإحساس و موت الضمير.

و على أية حال فإن كل فساد يطرأ على روابط الأفكار فيما بينها فى عالم الأفكار (فى المنطق والفلسفة..) أو مع عالم الأشخاص (فى المجال الأيديولوجى والسياسى..) أو مع عالم الأشياء (فى المجال التقنى والاقتصادى)لابد وأن يتولد عنه خلل فى الحياة الاجتماعية و انحراف فى سلوك الأفراد.. ولاسيما عندما يصل انفصام هذه الروابط عن نماذجها المثالية إلى منتهاه، و عندما تفقد أفكارنا المطبوعة شكلها

الأصلي في نفوسنا، و تصبح أفكارنا بدون شكل و بدون تناسق و بدون أهمية .. هنا تموت الأفكار و تصبح العقول خاوية و اللغات عاجزة.. ويعود المجتمع إلى مرحلة الطفولة من جديد حين يفقد الطفل الأفكار، و يلجأ إلى طريقته في التعبير بالإشارة والنغمة الصوتية.. وتظهر في هذا المجتمع ظواهر غريبة لتعويض القصور في الأفكار.. وقد يتخذ هذا التعويض شكل "إشارة" تكمل الجملة الناقصة لعجز صاحبها عن تكملتها لعدم توفر الكلمات و الألفاظ نتيجة عدم توفر الأفكار.

و قد عبر "بوالو" Boileau عن هذه الحقيقة بقوله " إن ماتفهمه جيداً يسهل عليك التعبير عنه بوضوح وتتسارع الألفاظ لأداء المعنى".

أما إذا نقصت الأفكار نتيجة عدم التماسك ، فإن نبرات الصوت تعلو لكي تعوض النقص في الحجة والبرهان ، فتظهر البلاغة الثقيلة في الأدب ، ويكثر استعمال أدوات التفضيل في اللغة ، والتشدق بالأوصاف مثل عبارة " الشعب البطل" في أحد الدساتير العربية أو "عملاق الثورة" لشخص مندس. أو يقال " الموقف خطير جدا" بدلاً من إعطاء فكرة دقيقة تصف الموقف ببساطة ، أو " كل الدنيا تعلم ذلك " أو "لاأحد يعتقد ذلك .." لتأييد أو للانتقاص من رأي . وباختصار إنه حشو الكلام حيث تجد الكلمة تقتصر على إلقاء ظل جديد يزيد في الغموض بدلاً من أن يوضح المقصود.

وعندما يسود عدم التماسك في عالم الأفكار تظهر علامات ذلك في أبسط الأنشطة ، وعندما يمس العلاقات المنطقية ، ينبغي أن نتوقع شتى أنواع اللبس في العقول بحيث لانستطيع مثلاً أن تميز بين الأسباب والمسببات في مجال السياسة.

وعلى هذا الأساس نرى المجتمع الإسلامي وقد طرح مشكلة الاستعمار ، قد أهمل مشكلة القابلية للاستعمار.

الفصـــل السابع
الأفكار المطبوعة والأفكار الموضوعة

•أفكار فطرية.

•أفكار مكتسبة.

عالم الأفكار يشبه اسطوانة يحملها كل فرد فى نفسه عند ميلاده ، تختلف من مجتمع لآخر ببعض الأنغام الأساسية ، لأن اسطوانة كل مجتمع مطبوعة بطريقة معينة. ويضيف الأفراد والأجيال نغمتهم الخاصة إلى هذه الاسطوانة وكأنها التوافقات الموسيقية المتعلقة بالأنغام الأساسية.

والاسطوانة ذات الأنغام الأساسية (أى النماذج المثالية) هى بمثابة الأفكار المطبوعة ، بينما التوافقات الموسيقية التى تخص الأفراد والأجيال هى بمثابة الأفكار الموضوعة.

ويقرر علم الطبيعة أن العلاقة وثيقة بين الترددات الأساسية وتوافقاتها إلى درجة أن سكوت الأولى يؤدى حتماً إلى اختفاء الثانية .. وهى نفس العلاقة التى بين الأفكار المطبوعة والأفكار الموضوعة.

ولقد تلقى المجتمع الإسلامى الأول رسالته المطبوعة منذ أربعة عشر قرناً حين جاء بها الوحى من عند الله . وطُبعت هذه الرسالة فى نفسية وشخصية الجيل الأول الذى خرجت منه مايشبه السيمفونية البطولية لدين ، وصفه "نيتشه" بأنه "دين رجال".

ولقد أثارت الأفكار المطبوعة هذه – عواصف فى تاريخ الإنسانية ، بدأت بقلب المجتمع الجاهلى البدائى ، ووضعت طاقته الحيوية فى إطار حضارة جديدة ، وطوعت هذه الطاقة وأخضعتها لقواعدها وأصولها ونظامها الدقيق وكانت اللحظة المشرقة التى لامثيل لها هى التى عاشتها الجزيرة العربية وقت تلقى هذه الرسالة.

لقد رسمت فى المجال المادى آثاراً جديدة ونتائج اجتماعية حديثة ، مستعينة بنفس الوسائل والموارد القديمة ، لأن عالم الأشياء فى ذلك الوقت لم يكن ليتغير بسرعة.. مثال ذلك تلك اللحظة التى وضع فيها المهاجرون والأنصار معاً مواردهم لمواجهة ماتتطلبه المرحلة الجديدة من حاجات.

وخلقت فى المجال الثقافى مقاييس كثيرة ، وأسلوباً جديداً فى التفكير لمواجهة

الضرورات التي يقتضيها التنظيم الجديد ، وتوجيه مختلف أوجه النشاط.

وخلقت في المجال النفسي والأخلاقي مراكز جديدة لاستقطاب الطاقة الحيوية ، وتحققت حول هذه المراكز لحظات لايدانيها شئ في السمو والرفعة .. ولقد قامت مراكز الاستقطاب هذه بتركيز أفكار ومفاهيم جديدة ، ونماذج مثالية عن عالم ثقافي جديد ركزتها حتى درجة الانفجار ، فانفجرت على صور لم يسبق لها مثيل.

فعندما قام المسلمون – بناء على مشورة سلمان الفارسي – بحفر الخندق لصد آخر موجة جاهلية ، كان النقص شديداً في عالم الأشياء أمام عمل شاق وغاية في الصعوبة. ولهذا كان الرسول ﷺ يسرّى عن المسلمين ، والمسلمون يجاوبونه :

نحن الذين بايعوا محمداً على الإسلام مابقينا أبداً.

وعندما قبّل رجل امرأة (وهي لحظة تجاوزت طاقة الرجل الحيوية حدود المجتمع الجديدة) تحرك ضمير الرجل وذهب إلى الرسول ﷺ يعترف له .. حيث نزلت الآية الكريمة ﴿ أقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل . إن الحسنات يُذهبن السيئات – هود ١١٤ ﴾ ويسأل الرجل : ألي هذا ؟ فيرد الرسول " إنها لجميع أمتي كلهم".

وتأتي امرأة إلى الرسول ﷺ لتعترف له بأنها زنت (وعبارة الزنا لم تكن تعني شيئا في الجاهلية ، ثم أصبحت تتركز عليها فظاعة تورق الضمائر) ، والمرأة تدرك العقوبة التي تنتظرها ، وترى أن آلام الجسد أرحم من عذاب الضمير. وكانت تلح في طلب تطبيق الحد عليها ، حتى تم تطبيقه.

ولقد تجاوزت الأحداث مجال الأفراد وشملت الحماسة جميع أفراد المجتمع .. مثال ذلك حالة المخلّفين (أي الذين تحفظ الرسول ﷺ في الحكم بشأنهم) الذين لم يخرجوا في غزوة تبوك وهم ثلاثة. ولقد أبرز القرآن الكريم مقدار التوتر الذي أصاب الضمائر التي عاصرت الحادث ، وأصدر حكمه بالتوبة والمغفرة (سورة التوبة ١١٨) وكان هذا اليوم يوم استبشار للمجتمع بأسره وليس للمخلفين وحدهم.

وفي هذا الجو الشديد الحماسة ، أخذت الأفكار المطبوعة تتعمق في سائر الأفكار الموضوعة وعلى كل المستويات وعلى جميع أنواع السلوك. فليس هناك شئ بعيد عن الدين الذي يشمل كل الدنيا (جُعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً). وفي هذه الظروف يمكننا أن ندرك مدى فداحة اقل الذنوب وأصغر الأخطاء. إذ كان لدى كل فرد حساسية أخلاقية وجمالية شديدة.

وتخبو هذه الحساسية بالتدريج بمقدار تفكك عالم الأفكار وانحطاط المجتمع بوجه عام .. وتستمر حالة الهبوط .. حتى تصبح الأفكار الموضوعة مبتورة الجذور عن الثقافة

الأصلية ، ويغلب عليها الصمت إذ ليس لديها ماتعبر عنه .. فهي لاتستطيع أن تعبر عن شئ.. وعندما يصل المجتمع إلى هذه النقطة يفنى كمجتمع ويتحول إلى ذرات مبعثرة لعدم وجود دوافع جماعية .. ويُقبل الفرد على الانتحار ، وينطوى على أنانيته الذاتية ، كما هو الحال فى أوروبا اليوم .. إنه زمن الأفكار الميتة.

وبعد أن عاش المجتمع الإسلامى اللحظات المجيدة.. عاد فى الوقت الحاضر ليعيش فى عصر صمت الأفكار الميتة.

ولكن الألم يكون اشد والحسرة أكبر عندما نحاول إحياء العالم الثقافى الإسلامى المشحون بالأفكار الميتة بالاستعانة بأفكار قاتلة مقتبسة من حضارة أخرى. فالأفكار القاتلة فى موطنها الأصلى تصبح أشد قدرة على القتل عندما تنسلخ من محيطها .. لأنها تترك مع جذورها – التى لاتستطيع نقلها – مضدات السميات التى كانت تخفف من شدة ضررها فى موطنها الأصلى.. وهكذا يقتبس المجتمع الإسلامى الأفكار الحديثة و "التقدمية" من الحضارة الغربية.

أما ماهو غير طبيعى فى المجتمع الإسلامى المعاصر ، فهو جموده وخموله فى هذه المرحلة ، كما لو كان يريد الخلود وهو على هذه الحالة . بينما مجتمعات أخرى مثل اليابان والصين بدأت منذ نفس النقطة وتخلصت من ركودها ، وفرضت على نفسها ظروفاً ديناميكا جديدة ، ونظرية جدلية عن التاريخ.

إن المجتمع الإسلامى الحاضر يدفع ثمن خيانة نماذجه المثالية .. وإنه لوقت مؤلم أن يتمزق المسلم إلى شطرين: المسلم وهو يمارس عبادته داخل المسجد ، والمسلم خارج المسجد غارقاً فى عالم آخر مختلف كل الاختلاف..

الفصــــل الثامن
جدلية العالم الثقافى

•الأفكار تصير واقعاً اجتماعياً.
•الواقع الاجتماعى يصير أفكاراً.

عالم الثقافة ليس ساكناً بلا حركة ، وإنما له حياته وتاريخه .. ويمكن تفسيره – من وجهة النظر العملية – بناء على مضمون فكرة هيجل ، بأن الفلسفة (أى الأفكار) يمكن أن تصير أحداثاً اجتماعية (أى عالما) ، كما أن العالم قد يصير فلسفة (أى أفكاراً).. أو من خلال مضمون مبدأ كارل ماركس بأن أى تعديل يطرأ على تركيب البناء السفلى فى المجتمع يترتب عليه تعديل مماثل فى تركيب بنائه العلوى.

أما من حيث النظرة العامة ، فإن خصائص الحركة – الفردية أو الجماعية – تكون تابعة للروابط الداخلية التى تقوم فى عالم الثقافة بين عناصر هذه الحركة (وهى الأشياء والأشخاص والأفكار).

والجدلية الباطنية فى الطور التاريخى للمجتمع ، تحدد فى كل لحظة طبيعة تداخل العناصر الثلاثة المذكورة فى نشاط المجتمع ، وتتوافق فى كل لحظة – فى كيان هذه الحركة – علاقة معينة فيما بين هذه العناصر. وهذا التوافق هو من اللحظات العادية لهذه الجدلية.. إلا أن هناك أوقاتاً تتميز فيها هذه العلاقة بدرجة من الخصوصية ويزيد فيها وزن أحد هذه العناصر الثلاثة على غيره بحيث تدور هذه الحركة فى فلك الأشياء أو الأشخاص أو الأفكار.

وعندئذ يظهر خلل فى التوازن ، يميز هذه المرحلة غير السوية للجدلية فى عالم الثقافة ، وينم عن نوع من الإسراف أو الطغيان يكون فى غير صالح النشاطات الاجتماعية. والخط الفاصل ليس بالوضوح الكافى بين مراحل عدم التوازن ، لأن التداخل لايتيح معرفة الوقت الذى ينتقل فيه المجتمع من منطقة إسراف إلى منطقة إسراف أخرى.

ويعتبر المجتمع الإسلامى الحاضر حقل دراسة لعالم الاجتماع يمده بملاحظات عظيمة الأهمية .. يأمل كل الأمل أن تصل إلى قادة السياسة والثقافة الذين يملكون أسباب العلاج فى البلاد الإسلامية.

وبرغم أن المجتمع الإسلامى الآن أصبح فى مرحلة ماقبل التحضر من جديد ، وبرغم الجهود الكبيرة التى بذلت خلال مايقرب من قرن ، فإن انطلاقه يبدو ثقيلاً وبطيئاً

إذا ماقورن باليابان أو الصين الشعبية التى كانت متأخرة عنه بكثير.

والمفسرون للمعوقات فريقان : فريق يتهم الاسلام بأنه سبب ذلك ، مدافعاً عن الاستعمار ،ومتجاهلاً أن الفوضى التى تسود فى العالم الإسلامى اليوم يتحمل الاستعمار النصيب الأكبر منها ، ومتناسياً دور الإسلام فى إقامة إحدى أعظم الحضارات الإنسانية.. بينما الفريق الثانى - حامل لواء النظرية القومية - يلقى اللوم كله على الاستعمار فى محاولة لإخفاء سياسة التملق التى ينتهجها مع شعبه والتى تخدر الشعوب وتصرفها عن تحمل مسئوليتها ، ويتجاهل كذلك حقيقة أخرى هى أن هناك بلاداً لم تعانى من الاستعمار فى حين أنها أكثر تخلفاً من غيرها مثل اليمن.

والحق أنه ينبغى أن ننظر إلى القضية بعين الإنصاف .. وسوف نرى (فى الفصل التالى) كيف أن كل مجتمع يتحتم عليه التصدى لاتجاهات تقود إلى الاختلال فى التوازن (وهى حقيقة ملازمة لكل نمو تاريخى). والمجتمع الإسلامى يعانى منها أشد المعاناة لأنه لم يخطط " لعصر نهضته " التخطيط المدروس الذى يأخذ فى حسبانه جميع عناصر الفرقة والإعاقة .. ولم يكوّن المفكرون جهازاً للنقد والتحليل (فيما عدا مجال الدفاع عن الإسلام وإثبات قيمته) ، ولم يؤمن قادته السياسيون أيضاً بأهمية هذا الجهاز لمراقبة مسيرة شئون بلادهم .. مما أدى إلى أن حركة المجتمع التاريخية تسير منذ قرون بعيدة عن حدود المقاييس الفعالة ، فى ظل الفوضى الفكرية .. مما أثار صعوبات كثيرة ، وترتب عليه ضياع للوقت ، وتبديد فى الوسائل ، ووقوع انحرافات كثيرة .. كل ذلك كان نتيجة عدم تماسك الأفكار وطغيان الأشياء أو الأشخاص.

فالعالم الإسلامى الحاضر يعانى من طغيان الأشياء فى جميع المجالات:

أ - على الصعيد النفسي والأخلاقى .

عندما يدور عالم الثقافة فى فلك الأشياء تحتل الأشياء القمة على سلم القيم، وتتحول - خلسة - الأحكام "النوعية" إلى احكام "كمية" دون أن يشعر صاحب الأحكام بانزلاقه نحو " الشيئية" أى نحو تقييم كل الأمور بمقياس الأشياء. مما يؤدى إلى وقوع هفوات كثيرة ، ولاسيما فى مجال الأدب السياسى.

فمثلا وردت عبارة " الحكومة وشعبها" فى إحدى مذكرات تأييد الحكومة بدلا من "الشعب وحكومته" مما جعل المالك مملوكاً ..

أو أن الموظف يعتمد فى تحديد درجته فى الترتيب الإدارى بناء على عدد الأجهزة التى فى حوزته. فقد رأيت فى مكتب أحد كبار الموظفين ٤ تليفونات أمامه و ٥ أجهزة تكييف تحيط به .. كما أن شاباً مفكراً - أبوه شخصية مرموقة - كف عن

مصافحتى منذ أن رآنى يوما نازلاً من عربة قطار الدرجة الثالثة.

ب - على الصعيد الاجتماعى .

يكون من نتائج النزعة الشيئية استبعاد سلطة المجتمع والتبذير فى الموارد والثروات ، كما تطرح المشاكل من خلال النزعة إلى " الكم " ويتم تجاهل الخصائص النوعية فى الحلول. مما يؤدى إلى مظاهر اجتماعية غير متوقعة.

فقد قامت إحدى المصالح الحكومية الثورية بتجهيز مقرها ، فزودته بعدد خيالى من المكاتب تعذر توفير المساحة اللازمة لها .. مما أدى إلى تكديسها فى الفناء وتعرضها للتلف.. وعندما رغب أحد مراكز الصيانة الصحية تزويد حديقته بالسيارات جلب عدداً كبيراً جداً يزيد عن حاجته فرأيتها واقفة بلا عمل لمدة سنتين.

جـ - على الصعيد الفكرى .

فلا يُسأل المؤلف مثلا عن موضوع كتابه الجديد ، وإنما يُسأل عن عدد صفحاته.

د - فى الفكر السياسى .

وهذا يؤدى إلى تورط الطاقة الاجتماعية فى شتى المجالات ، ولاسيما مجال التخطيط عندما يواجه بلد معين مشكلة التنمية: إما باستثمار رؤوس أموال أجنبية ، أو بزيادة الضرائب التى تشل النشاط الفردى وتشيع نظاماً يقوم على المحسوبية الضرائبية.

غير أن المرحلة الحالية فى المجتمع الإسلامى تتميز بتداخل طغيان الأشياء مع طغيان الأشخاص ، مما يترتب عليه نتائج ضارة ، ولاسيما فى المجال الأخلاقى والمجال السياسى.

١ - فى المجال الأخلاقى .

عندما يتجسد المثل الأعلى فى شخص ما تحسب أخطاء وانحرافات هذا الشخص على عاتق المجتمع الذى جسّم فيه مثله الأعلى. مما يؤدى إما إلى تنحية المثل الأعلى الذى هوى ، أو إلى الارتداد - لتعويض ذلك - باعتناق مثل أعلى جديد. دون أن يشعر أحد أنه حدث استبدال خفى لمشكلة الأفكار بمشكلة الأشخاص.

ولقد ألحق هذا الاستبدال بالفكرة الإسلامية أضراراً كبيرة عندما تجسدت الفكرة فى أشخاص لم يكونوا أهلاً لحملها.. على الرغم من تحذير القرآن الكريم لجماعة المسلمين من هذا الخطر ﴿ ومامحمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل. أفإن مات أو قُتل انقلبتم على أعقابكم - آل عمران ١٤٤﴾.

٢ - فى العمل السياسى .

نستطيع ان نعدد فى البلد الاسلامى الواحد الكوارث التى كان يسهل تلافيها والتى

دُفع فيها ثمن تجسيد الأفكار غالياً.فإن إطلاق لفظ "رجل القدر" ولفظ "الشئ الوحيد" منتشر في أرجاء العالم الإسلامي الحاضر، وهو احياناً السبب في إفلاس فادح لسياسات عديدة .

لقد كانت اعظم الافكار الحية في الجزائر التي كان الاستعمار يرتعد منها هي فكرة ميلاد مؤتمر إسلامي جزائري عام ١٩٣٦. وعند تجسيدها في رجل سياسي ، ماتت الفكرة بعد شهر واحد لأن هذا الشخص لم يكن أهلاً لحملها .

وفي مجال الصراع الفكري كانت الفرص متاحة أمام الاستعمار كي يستغلها في الشئون السياسية لتجسيد أفكارنا في أشخاص ولكي نسير في هذا الاتجاه السقيم الذى قد يمنعنا من أخذ العبرة وتدبرها في حالة الفشل عندما نطلق على هذا الشخص الذى تجسدت فيه القضية " رجل نحس". وبصفة عامة فإن محاربة الفكرة بالوثن حققت للاستعمار نجاحاً باهراً في الخدع السياسية مستغلاً أحياناً أشخاص المفكرين أنفسهم.

فمثلا عندما وقع الانفصال بين مصر وسوريا عام ١٩٦١ معلناً عن الفشل الأليم لفكرة الوحدة العربية ، تعمدتُ أن أُنصت إلى راديو القاهرة وراديو دمشق لكي استمع إلى التفسير الذى سيقدم لتبرير هذا الحادث المؤلم .. فعزته القاهرة إلى رجل شؤم مدبر للانقلابات – هو الضابط الكزبري – بدلاً من البحث بطريقة أعمق وأكثر فائدة للأمة العربية عن الأسباب الحقيقية في عالمنا الثقافي الذى لم يكن تتوفر فيه الفكرة المضادة لهذا الانفصال.. بل كانت كل عوامل التشجيع عليه متوفرة.

وأقل الناس اقتناعاً بالقيمة الاجتماعية للأفكار هو في الغالب المثقف المسلم. مما جعل أعداداً غفيرة منهم يدورون في فلك بعض الأوثان بدلاً من أن يكرّسوا جهودهم لخدمة بعض الأفكار.

وهناك طغيان آخر هو طغيان الأفكار .. وهو داء صفوة المجتمع عندما يبدأ المثقف في فقدان تكيفه مع الحياة الاجتماعية.. فينطلق يبحث عن دوافع جديدة في كل اتجاه خارج مجتمعه ، أو يكرس طاقته الحيوية الوفيرة في إقامة المتاريس دون أن يستطيع الافصاح بوضوح عن سبب اندفاعه هذا ..

أما في البلد النامي ، فإن عدم التكيف هو الذى يتخذ شكلاً من أشكال الطغيان ، وليس عجز عالم الأفكار المخذولة أو عدم تماسكه.

وقد يتولد الطغيان من الأفكار المدونة في الكتب ويظهر في مواقف تدعو إلى السخرية أحياناً. ففي إحدى المحاضرات عن تركيب الأدوية أجهد الأستاذ نفسه في وصف إحدى النباتات بدلاً من أن يمد يده من النافذة ويقطفها لكي يقدمها إلى الطلبة حية نابضة.

الفصـــل التاسع
جدلية الفكرة والشئ

•الصراع بين الفكرة والشئ.

•اختلال التوازن لصالح أحدهما.

للعالم الثقافي تركيب ديناميكي تتفق مظاهره مع العلاقات المتغيرة التي تسود بين عناصره الثلاثة (الأشياء ، والأشخاص والأفكار). وقد حاولنا أن نوضح – في فصل سابق – أوقات الأزمة في المجتمع عندما يحدث في عالمه الثقافي اختلال في التوازن يكون لصالح أحد هذه العناصر.. بينما الأوقات الأخرى لاتعدو أن تكون فواصل زمنية تتميز باتجاهات تتناسب مع عمر المجتمع ومرحلة تحضره.

والفاصل الزمني intermede هو الصراع الثلاثي في قلب العالم الثقافي .. والأزمة هي نهاية هذا الصراع الذي تفوز فيه إحدى القوى الثلاث المتصارعة ، ويبرز فيها طاغوت يستولي على السلطة في قلب العالم الثقافي.

وسنحاول هنا عزل الفاصل الزمني الخاص بالصراع بين الفكرة والشئ ، وذلك بسبب دلالته الاجتماعية الخاصة . فدلالة هذه العلاقة ليست مقصورة على العالم الإسلامي الذي يواجه "الشيئية" وسائر نتائجها النفسية الاجتماعية ، وإنما ينبغي أيضاً دراستها في أي مجتمع متحضر كوسيلة لتحليل الأوضاع القائمة من الناحية النفسية والاجتماعية ، لاسيما أن الفكرة التي يتم اكتشافها في أوربا مثلا وتدور نوعاً ما حول نقطة بحثنا.. يمكنها أن ترشدنا في بحثنا وتغذي فكرنا في هذه النقطة برغم مايكتنفها من تناقض في بعض الأحيان.

والواقع أن للمشكلة مظهراً مزدوجاً:

ففي البلد النامي يبرز طغيان الشئ بسبب ندرته مما يتولد عنه مركب حرمان وميل إلى التكديس الذي يصبح في المجال الاقتصادي صورة من صور التبذير والإسراف..

أما في البلد المتقدم– وبحسب درجة تقدمه – فإن الشئ يفرض سيطرته بوفرته الكبيرة ،ويخلق نوعاً من التشبع ومن الإحساس الثقيل بالمألوف (du déjà trop vu) ، وينتج عنه الميل إلى الهروب الذي يدفع الإنسان المتحضر إلى تغيير إطار حياته

وعاداته، أو إلى البحث عن مكان آخر يتنسم فيه الهواء. ونظام الأجازات المدفوعة الأجر هي ثمن لهذه الأوضاع. وهي بمثابة المسكّن لداء عدم الاستقرار الذي يعاني منه مجتمع الاستهلاك.

فإن كان المجتمع المحروم يستسلم لسيطرة عالم الأشياء المحروم منها ، فإن المجتمع المكتظ يتمرد على هذه السيطرة.. والمجتمعان يواجهان بهذا الانفعال – نفس الداء ألا وهو طغيان الشيئ .. وإن اختلفت أعراضه ، واتفقت نتائجه النفسية . باعتبار أن الشيئ يستبعد الفكرة من العالم الثقافي ، ويطردها من ضمير كل من الشبعان والمحروم سواء بسواء.

وقد تظهر هذه النتائج في المجتمع الإسلامي بصورة مضحكة. عندما يحل الشيئ محل الفكرة بطريقة ساذجة. فتنشأ عن ذلك حلول زائفة لمشكلات حيوية . وقد يلاحظ ذلك أحياناً في النظم العليا للدول المستقلة حديثاً ، أو في مستوى التعليم العالي الذي يُفترض أن نجد فيه أثر التوجيه العام لأهل الفكر المستنير.

وأذكر هنا ملاحظات مقتبسة من تقرير عن معهد لطب الاسنان بالجزائر يرجع إلى عام ١٩٦٥ ، جاء فيه أن حالة المعهد ذاته تعكسها حالة الجزء الأكبر من أدوات المعهد ومعداته .. إذ أن ٥٧ وحدة (من ٦٠ وحدة) معطلة تماما مما يجمد رؤوس أموال طائلة في استثمار غير منتج .. وقد كان اختيار هذه المعدات على غير أساس سليم .. فبدلاً من أن يدرب الطالب المبتدئ بأدوات رخيصة وبسيطة وعلى كراسي عادية ، كان يسلم له جهاز مخصص لعيادة جراح أسنان .. ومع عدم وفرة الأدوات الصغيرة كان بالمعهد معدات ثابتة باهظة الثمن وغير ضرورية .. فكان المعهد وكأنه معرض للمعدات وليس معملاً للتعليم ... أما فيما يختص بخصائص التعليم ، فكأن الأمر كان يقتصر على إعداد أناس لخلع الأسنان بدلاً من جراحين للأسنان .. وقد ترى أستاذاً في طب الأسنان يلقي محاضرات في الأمراض البولية.. وأما المواعيد فهي فوضوية إلى درجة أن أي أستاذ يمكن أن يختار مجموعة من الطلبة في أي وقت ليلقي عليهم محاضراته.. مما يجعله في آخر العام عاجزاً عن تقدير مستويات الطلبة.

هذه الوثيقة تترجم عدم التوازن الذي يؤثر على علاقة "الفكرة بالشيئ" في غير صالح الفكرة ، حتى تبلغ درجة الشيئية التامة .. مما يظهر آثاره السلبية في المجال الاقتصادي والتربوي.

وقد يتقنع طغيان الشيئ في المجتمع المتقدم تحت مظاهر أكثر غموضاً. فقد يحدث اختلال التوازن في مستوى ثقافي أعلى ، وتظهر آثاره كمؤشرات عن أزمات

أيديولوجية أو أزمات سياسية يمكن قراءتها في ثنايا بعض الأحداث الجارية .. التي تجذب انتباه المراقبين في المجتمع الرأسمالي أوالسوفيتي.

فمنذ عشر سنوات أجرى أحد المراقبين بفرنسا (هو أ. مورين) تحقيقاً عن أسباب اخفاق الاشتراكية في انجلترا .. ولاحظ أن السبب كان في أن الأهداف التي كان الحزب الاشتراكي يمنّي ذوي الأجور بتحقيقها قد أوجدها حزب المحافظين فعلاً.. إلا أن المراقب عندما حصر تفسيره على المجال السياسي أهمل التطور النفسي الذي كان مؤداه عدم وفاء العمال الإنجليز "لفكرة" الاشتراكية التي سبق أن قادت معاركهم الظافرة.. أما جوهر الموضوع من وجهة النظر النفسية في حقيقة الامر، فهو أن "الاشياء" هي التي كانت تسيطر على الاصوات فتتجه لصالح المحافظين او لغيرهم..

وكان المحقق قد كتب - في نظرة كاشفة - تشخيصاً لهذه الحالة فقال "الفراغ المروع ،والوحدة، واليأس التي تخفيها حضارة الرفاهية ... سوف تتزايد تدريجيا في المجتمعات المتطورة ، اذا استمرت في السباق نحو الرخاء، ونحو لا معقولية الوجود استناداً الى العقل، ونحو هزال الحياة لفقدانها الترابط.. ونحو انعدام الانجازات الخلاقة.. ونحو الضياع في عالم الاشياء والمظاهر.. وأزمة الشباب وهموم الحياة عند أهل الفكر.."

إلا ان تحديده للعلاج كان عشوائياً أو متناقضاً عندما طالب بأن يحيي الناس حضارة الرفاهية الى آخر مطافها لكي يتولد عنها نقدها الذاتي.. غير ان "النقد الذاتي" هذا قد يأتي - لا علي صورة منازعة لإقرار النظام - وإنما في صورة اضطراب لا نهاية له، لا يكون هدفه تحرير الناس من استعباد الاشياء لهم، وإنما يكون نفياً وطرداً للأفكار من العالم الثقافي.

إن التشخيص الحقيقي هنا هو مرض "الشيئية" وهو علامة علي شيخوخة المجتمع الإنجليزي، وقد حدث ذلك في الاتحاد السوفيتي الذي هو اقل في درجة الاستهلاك. وكشفت ذلك جريدة البرافدا في حوار مفتوح تحت عنوان "العالم الروحي عند رجل اليوم" ونشرت خطابات للشباب الذين اشتركوا في الحوار، نختار منها خطابين يمثلان القضية ونقيضها.

فيرى مهندس أن المجتمع القوي هو الذي يتوفر فيه عدد من المهندسين المتفانين في عملهم، ويقل فيه الدارسون للعلوم الإنسانية - بينما يقول طالب في الفلسفة انه اذا كان الناس يعيشون من اجل الأكل فإن المثل الأعلى يكون هو السويد حيث الوفرة في الأكل.. اما إذا كان الهدف الأساسي في المجتمع هو أن يتوفر فيه عدد كبير من الرجال الذين يتفانون في عملهم ، فينبغي أن يكون المثل الأعلى هو امريكا.

ويتضح من ثنايا الخطابين بوادر اختلال التوازن في علاقة الفكـرة بالشئ (في صالح الشئ) ، أو لصالح فكرة جديده ليست متورطـة في مجال "الأشياء " الحاضرة.. وهذا وقت حرج في الثقافة السوفييتية.. انها "الأشياء" هي التى صـارت مقدسة في نظـر المهندس الذي اعتمـد في حجتـه على عـالم الأشياء (لا الأفكـار) الذي يخلق "المجتمـع الأقوى". اما طالب الفلسفة فلم يفصل في القضية باسم الماركسية وإنما أخذ يتحسس خطواته .. فتارة يضع قدمه في السويد ، وتارة في أمريكا .. ثم ماذا نلاحظ فـي النهايـة؟ إنه الفراغ الروحي الذي يسود في عالم الانتاج وتشتد وطأته على ضميره . وهذا الشعور هو الذي جعل القـائمين علـى الحوار يتعرضون لهذه المشكلة.. وقد عبر عنها طـالب الفلسفة باعتبار أنه يختنق فـي هذا الجـو .. ويريد التمرد على طغيان الأشياء وإعادة التوازن إلى علاقة "الفكرة بالشئ" لصالح فكرة لم يعبر عنها أو لم يعثر عليها بعد .. أو ربما كان يبحث عن الفردوس المفقود.

إن الحياة الفكرية السوفييتية اليوم تشعر بقوة تأثير هذا الصـراع. وقد عبر عنه أهل الفكر السوفييت بأنه "هبوط القوة الخلاقة عند ممثلى جميع المهن". وهذا خير دليل يؤكد هذه الظاهرة.

أما في المجتمع الاسلامي ، فقد وقعت بـادرة انفصام الروابط في قلب العـالم الثقافي يوم أن قال عقيل بن أبي طـالب – أخو عليّ – "إن صلاتى مع عليّ أقـوم لديني ، وطعامي مع معاوية أقوم لحياتي".

وهي مقالة تعبر عن التغيير الذى طرأ علـى الجو الثقـافي حينذاك.. فقد كـانت الحياة النفسية الموزعة بين الطعام والصلاة بداية الأعراض التي تنبئ عن بداية صـراع الفكرة والشئ.. الذى واصل طريقه بعد ذلك. وعندما حاول أبو حـامد الغزالي بعد أربـع قرون أن يصحح علاقة المجتمع الإسلامي الدينية بعالم الثقافة كـانت الفرصـة قد فـاتت.. فقد كانت مرحلة مابعد التحضـر قد بـدأت .ولـم يكن في إمكـان المجتمـع الإسلامي أن يسترد توازنه الأصيل على هذا المنحدر المشئوم.

الفصـــل العاشر
صراع الفكرة والوثن

•الصراع بين الفكرة والشخص.

•اختـلال التـوازن عندمـا ينتصـر الشخص فيصير وثناً.

•القرآن يمنع هذا الاختلال.

أوضحنـا فيمـا سبق – كحالـة عامـة – أن عـالم الأشـخاص مندمـج فـي العـالم الثقافي، بصرف النظر عن مرحلة تطور المجتمع وعمره النفسي في هذه المرحلة.

وتصبح الحالة العامة حالة خاصة ترتبط بمجتمع معين وفي عمر معين أو نتيجة حدث ثقافي معين ، حين يشرع المجتمع في بناء فكره و تكوين أحكامه بناء على مقـاييس تميل فيها علاقة الفكرة بالشخص في غير صالح الفكرة .. فيظهـر الاختـلال فـي التـوازن الثقافي الذي يتولد عنه المبالغة في أحد أنواع الطغيان سبق أن أوضحنا نتائجه الاجتمـاعية في بعض البلاد الإسلامية.

وقد تتأصل جذور هذا الاختـلال أكثر عندمـا يكون شخص معين – لا عـالم الأشخاص – هو الذي يستقطب أوجه النشاط الثقافي .. فيصبح الاختلال جوهريـا تسـتبعد فيه علاقة الفكرة بالشخص ، وتتركز في شخص واحد يجذب لصالحه سائر الروابط ذات الصبغة المقدسة في عالم الثقافة ، وتتمثل في شكل متطرف هو "الفكرة والوثن".

هذه أحداث ثقافية تقع في الحياة .. ووقعت في ثقافة القرن العشرين فـي إيطاليـا في شخص موسوليني وفي ألمانيا في شخص هتلر.. ونورد هنا ماوقع في الجزائر كبيئـة إسلامية.[1]

فقد أطلق القرآن الكريم اسم الجاهلية على وثنية الجزيرة العربية قبيل الإسلام – برغم عدم افتقارها إلى تراث أدبي خُلعت فيه أكبر الألقاب الأدبية.. ومـع ذلك فقد ظلت جاهلية لأن علاقاتها المقدسة لم تكن مع الأفكار وإنما مع أوثان الكعبة.. فقد احتوت اللغـة

---

[1] عرض المؤلف هذه الحالة في كتابه "شروط النهضة" الذي طبع عام ١٩٤٧ أي قبل الثورة الجزائرية، ونقل منه أغلب أجزاء هذا الفصل. (المؤلف)

على كلمات براقة ولكنها خالية من أى جوهر خلاّق.

وإذا كانت الوثنية فى حقيقتها جاهلية ، فإن الجهل يكون وثنية .. وهكذا كانت الشعوب البدائية ذات وثنية ساذجة.. إن هذه الجدلية تحدد طبيعة علاقة الفكرة والشخص التى تتحول فى النهاية إلى علاقة الفكرة والوثن.

وعلى مثل هذه العلاقة المتطرفة وحتى عام ١٩٢٥ كان الوثن بالجزائر قائما بالزوايا التى كانت تقصدها الأرواح المعطلة التماساً للبركات.. فكلما اختفت الفكرة فى المجتمع ساد الوثن والعكس صحيح.

ثم سطعت فكرة الإصلاح عام ١٩٢٥ فتهدم المعبد القديم وخرت الأوثان.. وزالت حمى الدراويش واستطاعت ضمائر الجماهير أن تشعر بواجبها.. وتمكن الإصلاح من أن يمسك بمقاليد النهضة ، وسخّر فى خدمتها موارد الروح الإسلامية التى تخلصت من غفلتها .. وكانت تلك هى اللحظة الرائعة التى سادت فيها علاقة الفكرة والشخص لصالح الفكرة الإصلاحية.. وبلغت قمتها فى المؤتمر الإسلامى الجزائرى عام ١٩٣١. فهل دامت الانتصارات؟

الواقع أن العلماء لم يكونوا محصنين بالقدر الكافى فى عالمهم الثقافى برؤية واضحة عن علاقة الفكرة والشخص – لكى لايسمحوا بعودة الوثن فى زى "زعيم" صانع للمعجزات السياسية ، ومعه التعويذة على شكل اوراق الانتخابات ، وعودة الاحتفالات الشعبية الانتخابية التى كان العلماء أنفسهم يدعون الشعب فيها إلى أن يقدم نفسه قرباناً.. وإنما الذى أصاب العلماء هو دوار الأماكن المرتفعة عند القمة بتحقيق المؤتمر الإسلامى الجزائرى ، فأفلتت علاقة الفكرة والشخص عند هذا الارتفاع وسقطت فى المستنقع السياسى حيث عاد احتلال الوثن لمكان الفكرة. وأخذ الإصلاح يتسكع..

بيد أن الحكومة عضو إذا لم يتكيف مع المجتمع ، اختفى من الوجود ، لأن الدولة التى ليس لديها الوسائل الضرورية لمسايرة التغيير وضمان سلامته ، ليس لديها الوسائل اللازمة للمحافظة على بقائها. ولكن العلماء كانوا يجهلون هذا القانون الأساسى واكتفوا بسياسة مطالبة الحكومة الاستعمارية ، مما أبقى بيد الاستعمار القدرة على المبادرة وفرص التأجيل.

وبهذا العمل أخلّ العلماء بالتوازن لصالح فكرة الإصلاح الذى كان قد تحقق فى العالم الثقافى الجزائرى بفضل جهودهم.. فتوارت الفكرة وعاد الوثن إلى الحياة العامة ، وتحولت المعتقدات الشعبية ليجذبها تيار سياسى غوغائى صاخب وعقيم.. لأن السياسة التى تجهل القوانين الأساسية لعلم الاجتماع لاتعدو أن تكون ثرثرة عاطفية ، ولعباً

بالألفاظ، وطنطنة فارغة.

ولكن الأفكار المخذولة تنتقم ، وكان انتقام فكرة الإصلاح التي خذلها الشعب الجزائري عام ١٩٣٦ قاسياً وكاملاً ، فشرعت الآلة تدور إلى الخلف ، وبدأت البلاد تتقهقر عن المراحل التي كانت قد اجتازتها ... وكان هذا إيذاناً بدروشة جديدة تشترى الحقوق السياسية وصفة المواطن .. بأوراق الانتخابات ، ولم يعد الكلام يقتصر على الواجبات ، وإنما على الحقوق وحدها ، وقد غاب عن الأذهان أن الحق صنو الواجب ، وأن الشعب هو الذي يخلق ميثاله وقانونه الاجتماعي والسياسي عندما " يغيّرما بنفسه" طبقا لشريعة السماء الخالدة: غيّر مابنفسك تغيّر التاريخ.

ولاداعي لمواصلة الحديث حتى النتائج الأخيرة لسياسة المطالبة التي عبر عنها صمت الأحزاب الوطنية في الساعات الحرجة عام ١٩٣٩ ، وفي نوفمبر ١٩٤٢ ، وأصبحت البلاد منذ ١٩٣٦ سوقا للانتخابات .. وتحول الشعب إلى جماعة من المستمعين أو قطيع انتخابي انحرف عن الطريق الذي رسمته الفكرة التي تاهت في ركاب الأوثان.

ياله من احتيال !.. لايزال باقيا حتى الآن ..لأن الوثن إذا كان لابد زائلاً، فإنه يتحول ويتخذ شتى الأشكال الممكنة في بيئة ترعرعت فيها الدروشة وأفرخت أوثاناً.

وكانت هذه الظاهرة واضحة في الثورة الجزائرية ، لأن نخبة المفكرين الجزائريين لم تكن مشبّعة "أيديولوجيا" بالفكرة الثورية.. وإنما كانت تؤمن ببعض الأوثان التي ألصقت بها بعض الصحف هذه الفكرة.. ومعنى ذلك أن المرض – الذي لم نكن قد شفينا منه – على مستوى صفوة المفكرين لم يكن نزيها ، لأن مفكرينا على استعداد لأن يأكلوا على كل الموائد.. وليس هناك أقبح من الجهل حين يتزين بزينة العلم ويتكلم باسمه.. وهو ميؤوس الشفاء لأن جهل المتعلمين أحمق ومغرور ومراء ، بينما كان الجهل في الأوساط الشعبية صريحاً وواضحاً كالجرح الظاهر القابل للعلاج.

ولقد كان العز بن عبد السلام ينكر على الفقهاء في عصره التقليد الأعمى الذي كان بالنسبة للفكرة الإسلامية – أول مظاهر استبدال الفكرة بالأشخاص ، أي أول المؤشرات التي تنبئ بنهاية الاجتهاد.

الفصل الحادى عشر

صدق الأفكار وفعاليتها

صحة الفكرة لاتقتضى دائماً فعاليتها.
وفعالية الفكرة لاتقتضى دائماً صحتها.

الفكرة الصادقة ليست دائماً فعالة.. كما أن الفكرة الفعالة ليست دائماً صادقة .. وهما مظهران مختلفان يترتب على الخلط بينهما صدور أحكام خاطئة تزداد خطورتها فى تاريخ الأمم حين يصبح هذا الخلط فى يد المتخصصين فى الصراع الفكرى فيستخدمونه كأداة لتضليل العقول واغتصاب الضمائر.

وتظهر الفكرة فى العالم فتكون صحيحة أو باطلة .. فإذا كانت صحيحة تظل تحتفظ بصدقها إلى آخر الزمان.. إلا أنها -برغم ذلك- قد تفقد فعاليتها خلال حياتها المديدة.

ولفعالية الفكرة تاريخها الذى يبدأ منذ لحظة اكتشافها ، حين يترتب على اندفاعها الأول حدوث انقلاب فى العالم أو حين يُعتقد أن فى الفكرة نقطة ضرورية يمكن الارتكاز عليها لقلب العالم .. فتتصف إذن الفكرة بالفعالية إذا أثارت العواصف ، أو أقامت شيئاً أو هدمته، أو أنها قلبت صفحة من صفحات التاريخ.

وصفة الصدق والأصالة صفة ذاتية وعينية ومستقلة عن التاريخ.. ويتجلى ذلك فى مجال العقيدة والمنطق والعلم والاجتماع..ولكن تاريخها لايتوقف على خصائص الفكرة الذاتية وإنما على قدرتها على التحريك وعلى قلب العالم الثقافى وعلى مجموعة من الظروف. فمثلا فكرة الدورة الدموية التى اكتشفها الطبيب العربى -ابن النفيس- فى القرن الثانى عشر الميلادى -لم يكن لها التأثير العلمى إلا بعد أربعة قرون عن طريق الطبيب الانجليزى "و. هارفى" فهناك عدد من الظروف أجبرت الفكرة على الانزواء حتى وجدت فرصتها فى مجال التطبيق..ومع ذلك فقد كانت الفكرة حقيقية وصادقة طوال أربعة قرون إلا أنها لم تكن فعالة. وهذا شأن كثير من الأفكار العلمية إذ تجد فعاليتها فى وقت لاحق.

وعلى نقيض ذلك ، يزخر التاريخ بأفكار باطلة غير أصيلة ، كانت لها فعالية هائلة فى شتى المجالات. إلا أن هذه الأفكار - لكى تدخل التاريخ - لابد لها أن تتقنع بقناع الحقيقة ، كما يفعل اللص عندما يدخل بيتا بمفتاح مقلد. ولقد كان "ليبنز" Leibniz يوصى فى مؤلفاته السياسية "بإخفاء المدنّس النافع تحت مظاهر مصطنعة من التقديس.." فقد كان ينظر - كعالم - إلى عالم الرياضة بمنظار "الصدق والأصالة" ، أما فى عالم السياسة فقد كان ينظر بمنظار "الفعالية".

وقد تكون الفكرة أحياناً فعالة في ظروف معينة ، فتكتسب طابع التقديس في نظر عصر معين. فقد وضعت أوروبا في القرن التاسع عشر قدرها في ثلاث كلمات هي "العلم والتقدم والحضارة" فصارت أفكاراً مقدسة أتاحت لأوروبا أن ترسي قواعد حضارة القرن العشرين داخل حدودها ، وأن تبسط سلطانها على العالم خارج حدودها ، وقد كانت هذه الأفكار فعالة حتى قيام الحرب العالمية الأولى — إذ لم تقم في وجهها أية معارضة أو منازعة.. فهل كانت صادقة أم باطلة؟.. ليس لذلك أهمية طالما أن كل شئ كان ينثنى أمام قانونها—قانون الأكثر فعالية..قانون الأقوى. أما اليوم وبعد حربين عالميتين ، فإن كل الدنيا—وأوروبا خاصة—تطعن في قدسية هذه الأفكار بينما لاينازع أحد في سلطتها على عالم الأشياء. فلا ينتقص من قدر أي إنسان أن يعارض الطابع المقدس الذي أضفاه الناس على فكرة سواء كانت صادقة أم باطلة..إنما الذي يشينه فعلاً هو أن ينكر فعالية الفكرة.

وفي العصر القرآني وحتى في أوج الحضارة الإسلامية ، كان في الإمكان إنكار صحة الفكرة الإسلامية سواء بسوء نية أم عن ضلال حقيقي. وقد اختلف المسلمون بعد عصر النبوة في فهمهم للإسلام .. ومع ذلك فقد كان طابع الإسلام الإلزامي يتزايد بتحقيق انتصارات السلطة السياسية ، أي أن فعالية الإسلام كانت في تقدم متزايد ، مما كان يزيد من قوة منطق الفعالية في الوقت الذي كانت تتعمق فيه فكرة صدق الحقيقة الإسلامية في نفوس المسلمين.

وبرغم انحدار الحضارة الإسلامية بعد ذلك ، فقد بلغ صدق الفكرة الإسلامية درجة من قوة الفعالية ماجعلها تستمر في كسب الاتباع الجدد ، وإسلام شعوب بأكملها ولاسيما في أوروبا بعد سقوط القسطنطينية عام ١٤٥٣ م . ثم أخذت فعاليتها تتدرج في النقصان طوال عصر مابعد التحضر إلى الوقت الذي دق فيه ناقوس الاستعمار في العالم.

فكان الاحتكاك العنيف مع الحضارة الجديدة في ظل النظام الاستعماري على أشده مع المسلمين وهم في أشد الظروف سوءا. فقد رجّحت أوروبا قيمة الفعالية على حساب قيمة الصدق والأصالة.. وأصبح عالمها الثقافي ذا وجهين: وجه يسير مع أخلاقياتها الخاصة ووجه يتجه إلى الدنيا ولايعنى بشئ سوى الفعالية.

أما الصفوة المسلمة المعاصرة التي تربت في أحضان الجامعات الأوروبية ، فلم تكن ترى إلا وجهاً واحداً فقط إذ حُجب عنها الوجه الآخر ، وأصبح في تكوينها التربوي خلط بين صدق الفكرة وفعاليتها. وهذا اللبس هو النواة التي يدور حولها سائر دسائس الصراع الفكري ومناوراته.. ويعرف قادة هذا الصراع كيفية الاستفادة من هذا اللبس عندما يلوّحون أمام أنظار شبابنا الجامعي بما يسلب الفكرة الإسلامية قيمتها التاريخية ، مستندين إلى موضوع الدخل السنوي المتوسط للفرد ، وهو موضوع أصبح من أقوى

حجج منطق الفعالية المستخدم اليوم فى الدراسات للقضاء على صدق الفكرة الإسلامية فى عقل الجامعى المسلم.

أما يقظة المسلمين أمام هذه الأساليب فليست وليدة اليوم .. إذ أثبت الرائد الثورى – عبد الله النديم – فى القرن الماضى سفسطة منطق الفعالية الذى يعتمد عليه المستعمرون لزرع مركب النقص فى نفوس المسلمين عندما قال : "إذا كنتم مثلنا ، لتصرفتم كما نتصرف" . وبذلك كشف الدهاء الذى ينطوى عليه التمويه بالفعالية على حساب الأصالة.. وختم كلامه بهذه الخاتمة العظيمة التى تستحق أن يُذكّر بها الجيل الحاضر " وبهذه الطريقة يهدف هؤلاء الغربيون إلى إبقاء الشرق فى قبضة الغرب بدافع الاحتياج ، والابقاء على الشرق كحقل يتمرن فيه المتخصصون الأوروبيون..."

وبعد قرن من الزمان لازالت هذه الفكرة تحتفظ بحيويتها .. إلا أنه يجب ألا ننسى التفاقم فى القدرات الفنية التى وضعها القرن العشرون فى أساليب الصراع الفكرى فى هذه الأيام.. فضلاً عن الشروخ التى أحدثها التطور فى عالمنا الثقافى.

ففى زمن عبد الله النديم ، تعرضت القلعة للهجوم من الخارج،وأراد المحتل أن يسيطر بأفكاره ليثبت سلطته الاستعمارية على ركائز أيديولوجية. أما اليوم فإن المعركة تدور داخل جدران القلعة بين المدافعين عنها ، وبين أنصار تسليمها إلى الأفكار الأجنبية.

واليوم يفتن كثير من المفكرين المسلمين بالأشياء الحديثة أى بمنطق الفعالية دون أن يعرفوا منهج إقامة النهضة فى المجتمع مع احتفاظه بأصالته.. فهم يخلطون بين "الانفتاح الكامل لكل فكر غريب" ، وبين تسليم القلعة للمهاجمين ، كما يفعل الجيش الخائن. إن هؤلاء مقلدون مدمنون فى تقليد غيرهم ، بعيدون عن أى فكرة للابتكار.. إلا أن هذا التقليد لايتجه نحو فعالية مجتمع متحرك مثل اليابان (الذى يمكن النسج على منواله) ، وإنما يختار فعالية مغايرة التى – بعد أن تمر فى قوالب فلسفية معينة – تصبح منطقاً مضادا للإسلام .. فهم يختارون مثلاً الماركسية ويصبغون وجهها بالدهان الصينى لكى تحوز إعجاب المتفرجين.

وهناك عبرة نخرج بها .. فالعالم الثقافى فى العالم الإسلامى اليوم ليس فقط هو المسرح الذى يدور عليه صراع الفكرة مع الشئ أو مع الوثن.. وإنما هو أيضا مسرح لمعركة يفرضها منطق الفعالية. لهذا ينبغى على الفكرة الإسلامية أن تسترد فعاليتها الخاصة ، بمعنى أن تأخذ مكانها من بين الأفكار التى تصنع التاريخ. وذلك لكى تقاوم الأفكار الفعالة الخاصة بمجتمعات القرن العشرين المتحركة.

الفصل الثانى عشر
الأفكار وديناميكا المجتمع

مرحلة اقتصاد يضمن القوت.

مرحلة اقتصاد يضمن النمو.

لايكفى فى عصر الإنتاجية أن نقول الصدق لكى نكون على حق ـ وليس من الحكمة اليوم أن نقول ٢+٢ =٤ وأن نموت جوعا ، وإلى جوارنا من يقول أنها تساوى ٣ ويضمن لقمة العيش لنفسه .. وذلك لأن "روح التلقين" التى تسيطر فى هذا العصر تؤكد خطأ الأول وصدق الثانى .. باعتبار أن الدليل على صدق الأفكار اليوم نجده فى المجال العملى ، وليس فى مجال الفلسفة والأخلاق. إذ يقول أحد القادة السياسيين السوفييت:" إن أقوى دليل على صدق أفكارنا هو نجاحها فى المجال الاقتصادى".

أما المجتمع الإسلامى فليس عليه أن يكتفى بقبول هذه النزعة العملية أو برفضها ، وإنما عليه أن يدافع عن عالمه الثقافى ضد "روح التلقين" هذه .. ولايكون ذلك بمجرد الإعلان عن قدسية القيم الإسلامية ، ولا بالتسامح مع ماهو لادينى على حساب الدين ، وإنما يجب عليه أن يهيئ لهذه القيم مايجعلها تستطيع أن تقاوم به روح العصر ، وأن تقصى عن الدين مالصق به من مظاهر الغرور التى تقضى على حيويته فى نفوس أبنائه.. وفى كلمة واحدة – أن يعيد روح الإسلام ذاتها إلى الوجود .

علماً بأن الرسول ﷺ لم يترك فرصة دون أن يحذرنا من الغرور الذى نعرف اليوم آثاره المعوقة للنمو الاقتصادى فى المجتمع الإسلامى المعاصر . فبعد عودته ﷺ من إحدى الغزوات فى شهر رمضان – وكان الصوم قاسياً على الصائمين فى ذلك اليوم– لم يفُتهُ أن يشيد بأجر المفطرين فى هذا اليوم لقيامهم بتوفير وإعداد ماتحتاج إليه القافلة (إذ يبيح الشرع الإفطار فى مثل هذه الظروف).

ونحن اليوم أحوج مانكون إلى الإعلان عن هذا الطابع العملى الإسلامى الذى يقدم فضيلة الفاعلية على فضيلة الأصالة.. فى الوقت الذى نواجه فيه بالقيم العملية فى البلاد الصناعية التى تسعى لإثبات عدم ملاءمة الإسلام للقرن العشرين .. فضلا عن أن المجتمع الإسلامى عليه أن يستعيد مبادئ السنة النبوية السامية حتى يسترد معها فعاليته.. وليس أمام المجتمع الإسلامى – لكى يثبت للدنيا صدق أفكاره بمنطق العصر – إلا طريق واحد .. هو أن يثبت أن بإمكانه أن يوفر لكل فرد فيه قوت يومه.

والواقع أن هذه القضية موضع دراسة فى البلاد الإسلامية منذ منتصف القرن الحالى.. وهى تتيح فرصة توضيح مدى النجاح وقيمة الوسائل المستخدمة ، فضلاً عن الكشف عن أسباب التأخير والركود في هذا المجال.. وتحدد لنا اليوم الصورة الاقتصادية العامة للعالم ، حقيقة وضع البلاد الإسلامية فى مقابل التقدم الذى حققته بلاد أخرى خلال الربع قرن الأخير.

فنرى بعض البلاد مثل أندونيسيا ، التى انطلقت غداة الحرب العالمية الثانية بفضل مالمتازت به من موارد طبيعية غنية .. ومع ذلك فهى اليوم أكثر تخلفا من بلاد أخرى مثل اليابان وألمانيا ، التى انطلقت فى ظروف أسوأ من ظروفها بكثير. ومعنى ذلك–وهو ماسنكرره دائماً بلا ملل–أن القضية قضية مناهج وأفكار وليست قضية موارد.

ومن حسن الحظ أن هذه الظاهرة أصبحت معروفة فى العالم الإسلامى .. ففى عشية لقاء بالجزائر عام ١٩٦٧ ضم عدداً من المفكرين المهتمين بدراسة الأوضاع الاقتصادية فى البلاد العربية،عرض علينا شاب مغربى –هو محمد ريفى– ملاحظة ذكية عن المغرب إذ قال : "بمقارنة الخطة الخمسية (٦٠–٦٤) مع شبه الخطة الثلاثية (٦٥–٦٧) اتضح أن هناك تأخراً واضحاً سواء فى التصور العام للخطة أو فى الأوضاع التنفيذية".

لقد كشف عن لب القضية.. ألا وهى أن التخطيط فى البلد الإسلامى يمكن أن يؤدى إلى التخلى عن مكاسب بدلاً من تحقيق مكاسب جديدة .. ومن واجبنا أن نعمم هذه الملاحظة المؤلمة على عالمنا الإسلامى كله.. إذ علينا أن نضاعف اهتمامنا بالشذوذ الذى يتزايد برغم وفرة الموارد وكفاءة المتخصص فى التخطيط.

فقد تميزت أندونيسيا بموارد الأرض وبمعاونة خبير التخطيط الألمانى الدكتور شاخت ، أى بأنسب الظروف لانطلاقها ولكنها لم تنطلق .. وكأن فكرة التخطيط قد فقدت معناها فى اندونيسيا برغم الفائدة العظيمة التى أثبتتها فى كثير من البلاد من الاتحاد السوفيتى إلى الصين الشعبية.

وكان فى إمكان مؤتمر باندونج عام ١٩٥٥– بل كان عليه – أن يضع منهجاً ووجهة عامة لاقتصاد إفريقيا وآسيا ، بإدخال شئ من النظام فى الأفكار وإضافة أفكار جديدة مع الاستفادة من تجارب الماضى ودلالات الفشل النسبى الذى وقع ومن نتائجه السلبية.

ولقد وضع (تيبور ماند Tibor Mende) المشكلة فى إطارها الصحيح مادام الانطلاق يبدأ من الصفر عندما قال أن المشكلة فى هذه البلاد من اختصاص "عالم

البيولوجيا الاجتماعية" (وهو علم يهدف إلى خلق العناصر الاقتصادية من العدم) أكثر مما هى من اختصاص " المهندس الاجتماعي" (الذى يهتم بتنظيم هذه العناصر فى حالة وجودها).. وهذا هو النقص الجوهرى الذى كان يحول بين هذه البلاد وبين إيجاد ديناميكا اجتماعية. إن هذا التفكير ذو قيمة ودلالة أكبر من خطة الاخصائي فى الاقتصاد الذى غابت عنه هذه الحقيقة الإنسانية التي تدخل في معادلته في تطبيق الخطة.. ولقد فشلت في اندونيسيا خطة الدكتور شاخت لأنه لم يأخذ في اعتباره هذه المعادلة.

ويأتى بعد ذلك الاختيار المنهجي للخطة التى هدفها خلق ظروف مناسبة لديناميكا اجتماعية.. ثم تحدد الطرق لخلق هذه الحركة على أساس أننا لانستثمر ماتريد ، وإنما نستثمر مانستطيع استثماره.. ولانستثمر بوسائل الغير وإنما بالوسائل المتاحة تحت أيدينا فعلاً.. علماً بأن المشروع الذى يوضع على أساس أفكار البعض ويجرى تنفيذه بوسائل البعض الآخر لايحقق نتائجه.

لقد بدأت ألمانيا تتحرك عام ١٩٤٨ بتوزيع ٤٥ مارك على كل فرد ، وهو مبلغ زهيد فى مجال الاستثمار ، لكن الاستثمار الحقيقى هو رأسمال الأفكار فى راس كل ألمانى وفى تصميمه برغم أرضه الفقيرة والمحتلة ، ولكنها السند الضرورى لكل نشاط.

وفي نفس الفترة عام ١٩٤٨ انطلقت الصين فى ظروف أشد صعوبة ، وكان عليها خلق رأسمالها فى الأفكار بغض النظر عن اختيارها للوجهة الأيديولوجية.

وتشبه بيئة الصين الاجتماعية الاقتصادية غالبية البلاد الإسلامية ، وتلقى تجربتها الضوء على الوسائل البدائية اللازمة للانطلاق .. والإمكانيات المتوفرة بصفة عامة فى هذا المستوى هى :

أ – الزراعة فى حالة بدائية إلى حد ما.

ب – وفرة المواد الأولية فى السوق وفى باطن الأرض.

جـ – جهد العمالة (أى عدد الأيدى العاملة) التى يمكن تحويلها إلى ساعات عمل فعلية.

وتوضح هذه الميزانية قدرة الانطلاق على مرحلتين :

١– مرحلة اقتصاد الكفاف. ٢–مرحلة الاقتصاد المتقدم (الانطلاق الحقيقى).

إلا أن هذه القدرة – برغم أنها ضرورية – فإنها غير كافية لتحقيق الديناميكا الاجتماعية .. إنها تحتاج فى الحقيقة إلى "مفجر" قادر على اطلاق قوى المجتمع.

ومن هذا يتضح أن فشل الدكتور شاخت في اندونيسيا كان بسبب أنه لم يأخذ في حسبانه الطبيعة الخاصة للمفجر اللازم "لحالته" التي خلط بينها وبين حالة بلاده.

ومن المؤسف حقاً أن يحمل رجل العلم غمامة ثقافته الأصلية على عينيه – وهذا أيضاً مايحدث في أوروبا عند دراسة مشاكل العالم الثالث – ولكن مايؤسف له أشد الأسف هو أن نرى صفوة أهل الفكر في إفريقيا وآسيا – وبخاصة في البلاد الإسلامية – تحمل غمامة أسيادهم الأوروبيين على أعينهم أمام مشاكل بلادهم هم.

أما مشكلة المفجر الاقتصادي المناسب لحالة البلاد الإسلامية ، فيجب أن نجده بعيداً عن النظام الرأسمالي وعن النظام الشيوعي. إذ على المجتمع الإسلامي أن يضع أساس تخطيطه كالآتي:

أ – يجب أن تجد جميع الأفواه قوتها.

ب – يجب على جميع الأيدي أن تعمل.

عندئذ – وقد حركت أذرع هذا المجتمع طاقته الديناميكية وأدارت قواه الإنتاجية وأعادت للإسلام فعاليته – سوف لايحتاج الإسلام إلى الدفاع عن صدقه وأصالته.

وهذه المبادئ يجب أن يُنَص عليها في دساتير البلاد المتخلفة وأن تطبق تطبيقاً فعلياً، ولايُكتَفى بإدراجها في جداول أعمال "اللجان المختصة" التي تناقشها لمجرد التسلية، أو أن ترد في التصريحات السياسية المنمقة.. فهذه المبادئ ليست للتسلية ولا للتنميق ، إنما هي لدفع عجلة التاريخ.. وإن كان تطبيقها ليس بالأمر اليسير – لأنه يحتاج إلى تغيير جذري في عالم أفكارنا – أي كما يقال اليوم – يحتاج إلى" ثورة ثقافية".

الفصل الثالث عشر

الأفكار والتطور الثورى

•تنطلق الثـورة عندمـا يصبـح الوضع مستحيل احتماله.
•انطلاق الثورة لايضمن النجاح.

حين يصبح المجتمع فى وضع غير محتمل ، تكون الثورة خير مفجر يشعل النار فتدور العجلة التى تتعلق بقدر هذا المجتمع . ولكن هل دفع القوى إلى السير هو كل شئ؟ .. ولاسيما أن تاريخ الثورات فى العالم يفيدنا كم كان مصير الثورات عابراً واحتمالياً بعد تفجيرها.. وقد مرت بالعالم الإسلامى تجارب ثورية قبل الاستعمار وبعد رحيله .. وهو يعيش اليوم الثورة الفلسطينية.. ويكفى أن نتذكر أن لها رؤوساً عديدة (منها جورج حبش) ، لكى ندرك أننا لازلنا نفتقر إلى وسائل للمراقبة تحمينا من الخطأ فى أحكامنا .. لأن الظاهرة الثورية لم تخضع بعد لعلم معيارى يجعل مسيرتها تحت رقابة دقيقة.

ويرجع الفضل إلى الماركسية فى اكتشاف نظرية للتحليل تحقق هذه الرقابة بدرجة معينة ، وبطريقة استدلالية من أجل كشف الأخطاء التى تقع ومعالجتها فيما بعد .. وليس بغرض التنبؤ بأخطاء المستقبل عن طريق جهاز للإنذار يحرك بدوره جهازاً آخر للدفاع. ولقد قام كارل ماركس بتحليل الأخطاء التى وقعت فيها " ثورة كومون باريس" بغرض تلافى تكرارها فى ثورات أخرى ، وعندما تكررت الأخطاء بأشكال أخرى كان لابد من العمليات الساخنة أى "الثورة الثقافية".

إلا أن البلاد الإسلامية – حتى التى توصف "بالثورية" – لم يقم فيها هذا الجدل التحليلى ، وكأن الأمور فيها تسير على خير مايرام ، برغم أن كثيراً من هذه البلاد قد وجدت نفسها بعد الثورة فى وضع مماثل لما كان قبل الثورة إن لم يكن أسوأ.. فضلاً عن أن تجد نفسها تسير فى ظل أيديولوجيات لايدرى الأبطال الذين سقطوا فى الميدان ماهى الأفكار التى سقطوا من أجلها.. وكأن عجلة الثورة وأفكارها – خلال الثورة – كانت تدور إلى الخلف.

ومن الغريب أن هذه الأوضاع قد تتفاقم حتى نهاية مرحلة الثورة دون أن يكاد يلاحظ مدى سوء الانقلاب الذى حدث.. والأغرب أنه عندما يبدأ الناس فى إدراك ماحدث بعد الثورة ، يخرج أناس يدّعون الحكمة ويقولون أن هذه الأوضاع سوف تصحح نفسها

تلقائياً بالانطفاء الذاتي ، ويطالبون بناء على ذلك بترك الأمور على حالها حتى تعود تلقائيا إلى نصابها.. وإني أتساءل إلى أي اتجاه سوف يوجه هؤلاء مضخات إطفاء الحريق ، وكيف سوف يصححون وضع الجيش في الثورة ، بينما الأوضاع تنبئ بما لايدع مجالاً للشك أن الأمور إذا سارت على ماهي عليه فلن يتحقق أي إصلاح قبل إزهاق روح الثورة.

هذه الأوضاع الثورية الشاذة هي مشكلة الساعة التي تعجز التقنية الماركسية التقليدية عن حلها.. وعلى فرض أن كارل ماركس كان سيتعرض لتحليل مثل هذه الأوضاع لما استطاع أن يفعل ذلك إلا استناداً إلى منطق الجدلية الذي ينتمي إلى عالمه الثقافي.

بينما في البلاد التي تعيش في ظل الاستعمار أو التي كانت مستعمرة ، تعتبر الأوضاع السائدة فيها هي من النتاج المركب لجدلية أخرى تنتمي إلى عالمها الثقافي الأصلي ، ويقف الاستعمار بين هذا العالم الثقافي وبين أي عالم ثقافي آخر ، مثلما تقف عوامل التوليد بين التيار الكهربائي وبين جهاز توليد الكهرباء.

مع ملاحظة أن الفكر الماركسي نشأ في مناخ سارت فيه الفكرة الماركسية بمفردها دون الاعتماد على سند أو ركيزة، بينما الفكرة بصفة عامة لابد وأن تستند إلى شئ أو إلى شخص لكي يثبت صلاحيتها في أي مجتمع إسلامي في مرحلة مابعد التحضر

ولقد كانت الأوضاع الثورية بسيطة في عصر وبيئة كارل ماركس ، إذ كان على الفكرة الثورية أن تواجه أفكاراً من نفس البيئة وبالتالي من نفس عالمها الثقافي ، وكان التحليل في هذه الحالة يمكن أن يكشف بسهولة عن أخطاء وقعت مباشرة في هذا العالم الذي كان يولّد هذه الأفكار أما المجتمع الإسلامي في عصر مابعد التحضر ، فقد كان يواجه أفكاراً "دخيلة" وآتية إليه من عالم ثقافي آخر يقوم بدور " جهاز التوليد".

وهذا على وجه التحديد هو مظهر "الانحرافات الثورية".

ولقد كتب ج.ف رفيل J.F.Revel[1] في شرح مايسميه بالشروط الخمسة لكل ثورة "لاتقوم الثورة في ظروف ارتجالية (...) وإنما تسير الروح الثورية الحقيقية وفق الاستطلاعات المسبقة،حيث يكون التطبيق دائماً دقيقاً، وليس تقريبياً، وعلى درجة عالية من الكفاءة "

---

(1) J.F. Revel (Ni Marx , ni Jésus) éd. Lafford,Paris 1970 (لاماركس ولاعيسى) طبعة لافورد باريس ١٩٧٠.

وفي البلاد الإسلامية قد ينشأ التطور الثوري منذ يومه الأول على شكل ثورة مضادة مقنعة ، تنطلق في وقت محدد لتحتل مراكز استراتيجية قبل أن تحتلها ثورة أخرى حقيقية.. أو قد تقوم على شكل ثورة حقيقية تتخلى رويداً رويداً عن مكانها لثورة مضادة تستخدم اسمها وتتصف بصفاتها الظاهرة وتعتمد على نفس وسائلها ، وذلك بغرض قتل الثورة الحقيقة وشغل مكانها مع المحافظة على المظاهر كستائر تدور خلفها عمليات "لقلب خط السير ليتجه نحو مرحلة مابعد الثورة" .

وهذه المظاهر في الحقيقة هي المشكلة الجوهرية في النقد الثوري.

فإذا كنا أمام مسرح لأحد الحواة فإننا نعلم مقدماً أن ماسوف يقدم لنا هو مجرد خدع غير ممكنة الحدوث لولا مهارة الحاوي ، ولولا درايته بطريقتنا المعتادة في التأثر.

أما أمام مسرح السياسة حيث يكون الحاوي هو الاستعمار ، فلكي نكتشف الخدع التي يمكن أن تؤثر علينا أخلاقياً وسياسياً ، لابد وأن ندرك ماهي صورتنا في نظر الاستعمار ، وماهي صورته في نظرنا (وصورته في نظر كل مسلم تمثل شخصية الشيطان). ونضيف أن الاستعمار يعرف عنا ذلك جيداً ، فضلاً عن أشياء أخرى قد نجهلها عن أنفسنا .. وبخاصة تلقائية سلوكنا اللا إرادي . فهو يعلم مثلاً أن الشيطان عندما يقول ٢+٢=٤ فإن المسلمين سيقولون أن هذا ليس صحيحاً طالما أن هذا قول الشيطان.. وبالعكس إذا كان صوت من الأصوات التي تعتبر "صادقة" في نظر المسلمين – يقول – أن المجموع يساوي ٣ ، فإن المسلمين سيقولون إن هذا صحيح طالما أن هذا الصوت الصادق هو الذي يقول ذلك.

هذا الاستعداد في الأوساط الإسلامية يرجع إلى أن المفاهيم والآراء لاتتأسس في عالم الأفكار في هذه الأوساط وإنما في عالم الأشخاص . وهذا مايعرفه الاستعمار جيداً.. وهو يستخدم في عمله دائماً حقائق نفسية من أجل التأثير في الأمور السياسية. وتعتمد الإدارة الفنية للأخطاء المولّدة على هذه الأوضاع.. ولاتكاد نتائجها تخيب في عالم يتحتم فيه أن تستند الفكرة على شئ أو على شخص لكي تستطيع أن تشق طريقها.

وهكذا يستطيع الحاوي الماهر الواقف في صندوق الملقن على المسرح والمختفي عن الأنظار وأمام قاعة مهيأة نفسياً .. أن يخرج في شرق العالم الإسلامي أو غربه ثورة مضادة في صورة ثورة حقيقية.

ويعاني العالم الإسلامي الحاضر من أكثر من انحراف من هذا النوع. ويرجع

الفضل في وجود باكستان[1] إلى هذا النوع من الانحراف أي إلى خطأ مولّد في محيط نفسي كيّفه " زعيم ".. علما بان الزعيم قد لايُستخدم فقط لتحويل الطاقات الثورية عن مسارها ، وإنما يصلح أيضاً للقيام بدور " قاطع التيار " الايديولوجي الموحّد للصفوف والذي قد يتعارض مع سياسة التفتيت التي يتبعها الاستعمار في العالم الإسلامي.. ومع ذلك فليس من الضروري أن يكون الزعيم متواطئاً في الجريمة.

فقد قام "مصالي الحاج" بدوره بحسن نية. وكان سلوكه مطابقاً تماماً لمخططات الاستعمار وأهدافه .. وكوّن في مدرسته كثيراً من " صغار الزعماء" الذين قتلوه في نهاية الأمر بعد أن خانوا الثورة ، والتي تنكر لها هو نفسه عن تكبر وغطرسة. أما "عبّان رمضان" فقد كان بالفعل متواطئاً بتصرفاته المريبة حتى آخر لحظة من حياته من أجل الإجهاز على قيادة الثورة ، لاغتصاب السلطة ومحاولة استخدامها ضد الثورة ذاتها.

وقد يكون رجل السياسة في العالم الإسلامي رئيساً وطنياً صادقاً وقادراً على نشر فكرة جليلة تستطيع أن تحرك الجماهير نحو هدف عظيم .. ومن الطبيعي أن تتعرض الفكرة من أول وهلة للتقويم الحقيقي بمعرفة أخصائيي الصراع الفكري ، ثم تتركز دراستهم على شخصية هذا الرئيس من أجل اكتشاف أية ثغرات لكي يركب عليها الاستعمار صماماته ذات التأثير المزدوج:

١ - لمنع رواج الفكرة ، ولمنع اتساع دائرة نفوذ شخصية الرئيس حتى لاتصل إلى قلوب الجماهير.

٢ - حتى لايرجع إلى شخص الرئيس فضل القيمة الحقيقية لتأثير الفكرة لكي لايواصل الرئيس مسيرته الفعالة ، وحتى يمكن للاستعمار إضافة تعديلات وتصحيحات لازمة في الوقت المناسب أثناء المسيرة.

وهكذا تستمر المعركة " بدون رادار" حيث لايعطى الرئيس معلومات كاملة أولاً بأول عن مقتضيات الظروف عندما تواجه المعركة الفكرة وشخصية الرئيس..فيصبح الرئيس أسير نظامه الخاص الذي يتحول إلى جهاز صمامات يكون تحت سيطرة الاستعمار.. ويساق الرئيس بهذه الطريقة إلى تدمير ذاته..وهذا التدمير ليس دائما نهاية جسدية. فقد يكون سقوطاً سياسياً حيث تنهار الفكرة التي كان يجسدها وتفقد قيمتها بسبب " أخطائه المولّدة " التي حققت في سياسته بفضل نظام الصمامات.. ونهاية سوكارنو ونكروما مثال أليم للتدمير الذاتي.

---

[1] هذا التحليل النظري لاينبغي أن يكون حجة لكي نقف مكتوفي الأيدي أمام أي تهديد لوجود هذه الد الإسلامية من الداخل أو الخارج.

وجملة القول أن جهاز الصمامات يعمل لحساب الاستعمار لتوليد الأخطاء. ويصبح عند الضرورة جهازاً لحماية الأخطاء المولّدة من أى خطر عندما تتعرض للنقد. علماً بأن أجهزة الاستعمار لاتفسح للنقد مجالاً فى الحياة السياسية فى البلاد الإسلامية .. ولاسيما عندما يقتضى الأمر حماية ثورة مضادة فى طريقها إلى التكوين أو لإخفاء أسبابها .. وخير حليف لقادة الصراع الفكرى ولمحبطى الثورات هو الظلام أو السكوت.

ومن الغريب أن فى أوساط الحكومة الجزائرية المؤقتة للثورة الجزائرية بالقاهرة.. كان الشعار "اسكتوا لاتتكلموا .. إن الاستعمار ينصت إلينا ". لقد كان هذا من روائع أعمال قادة الصراع الفكرى.

وفى ظرف آخر بعد الانفصال السورى المصرى ، كنت أنصت إلى نقد مذاع فى الراديو .. وطالما أن النقد كان موجها لفكرة الوحدة ويهون من قيمتها ، كان صوت الإذاعة واضحاً ومستمراً ، وعندما تعرض النقد لجهاز الصمامات الذى كان يعمل للقضاء على الوحدة .. تلاشت كلمات الإذاعة وغطاها الضجيج .. هل كان مصدره الأسطول السادس أم تل أبيب ؟ . لايهم المصدر..

إلى متى سيدوم هذا الحال؟.. المهم هو أن تنسب هذه الأوضاع إلى أسبابها النفسية الاجتماعية ، وأن نثبت بعد ذلك أن باختفاء الأسباب ستختفى الأوضاع.

فقد سبق أن أوضحنا نوعي الأخطاء التى يمكن أن تؤثر على تطورنا الثورى ، وهى الأخطاء الطبيعية والأخطاء المولّدة ، وأسبابها مشتركة وتكمن فى حياتنا النفسية. بمعنى أن طغيان الشئ وطغيان الشخص يسيطران على عقولنا. وستختفى هذه الأسباب عندما تبسط الأفكار سلطانها على عالمنا الثقافى ، حيث سوف تكتسب تقديراتنا بصفة عامة وفى السياسة بصفة خاصة ، الطابع المنهجى المتصف بالشمول ، والذى يمكن أن يصهر التفاصيل الكثيرة فى وحدة كاملة ويصبها فى تركيب بديع.

وقادة الصراع الفكرى يعرفون أن التعامل مع الوثن أسهل من التعامل مع الفكرة، وأن استغلال النفوذ أسهل مع الأشخاص.. والمهم ألا يتركوا المد الثورى يتركز على فكرة..

وكان كتاب ف.فانون عن الثورة الجزائرية قد حصر معناها فى أنها مجرد "عمل من أعمال العنف". ولعل المؤلف–دون أن يدرى–قد خلّص "الزعماء" و "صغار الزعماء" من عقدة الذنب تجاه الأفكار المخذولة التى تنتقم وانتقامها ظاهر للعيان فى العالم الإسلامى.

ومن معالم البدع التى تنشأ من سيطرة الأشياء والأشخاص على عالمنا الثقافى ، صياح المتظاهرين فى شوارع القاهرة عام ١٩١٩ " الحماية مع زغلول.. ولا الاستقلال مع عدلى" .. وإضافة أسماء إلى أحلامنا مثل اسم جميلة بوحريد وعُبّان رمضان فى الثورة الجزائرية واسم جورج حبش فى الثورة الفلسطينية.

الفصل الرابع عشر
الأفكار والسياسة

•شوان لاى يعرف السياسة بأنها علم لايخطئ.

•العلم كمنهج أخلاقى يحتم مراجعة الأخطاء.

" الحرب هى استمرار للسياسة بوسائل أخرى" هذا التعريف وضعه ك. كلوزويتز K. Clausewietz وكان يدرّس منذ قرن مضى فى الأكاديميات العسكرية ، وهو جدير بأن يدرّس اليوم فى معاهد العلوم السياسية. ويتميز التعريف بأنه يدخل السياسة عرضاً فى نظام تمثل فيه الأفكار (التى تؤدى إلى الحرب) تركيباً علوياً ، فى مقابل أفكار الكيان السياسى المذهبى التى تمثل فيه تركيباً سفلياً. وتحتم هذه العلاقة وجود تجاوب بين صلاحية التركيب السفلى السياسى وصلابة التركيب العلوى العسكرى.

ولو أن نقاداً عسكريين سطحيين عاصروا تصرف أبى بكر الصديق ﷺ عندما ألقى بالجيش الإسلامى بعد وفاة الرسول ﷺ فى ثلاث معارك فى وقت واحد – إحداها داخل الجزيرة، ومعركتان بالخارج على الحدود – لرأوا فى هذا التصرف خطأ قاتلاً ، ولفاتهم أن هذا التصرف كان محسوباً على ضوء الأوضاع السياسية فى ذلك الوقت، فضلاً عن أن الظروف لم تكن قد تركت للخليفة الأول فرصة للاختيار. وكان أبو بكر وعمر ﷺ يتوليان القيادة السياسية من قلب المدينة المنورة.. وكانت قوة الجيش تعتمد على الثقة العظيمة فى هذه القيادة السياسية.

أورد المؤرخ ديورانت Diorant حواراً سياسياً عن السلطة دار بين "كونفشيوس" وأحد أتباعه هو " تسى كوج "فقال كونفشيوس " يجب أن توفر السياسة ثلاثة أمور : لقمة العيش الكافية لكل فرد ، القدر الكافى من التجهيزات العسكرية ، والقدر الكافى من ثقة الناس فى حكامهم". فسأل تسى كوج: "وإذا كان لابد من الاستغناء عن أحدها .. فبأيها نضحى؟" فرد الأستاذ : " بالتجهيزات العسكرية". وعاود تسى كوج السؤال: "وإذا كان لابد من الاستغناء عن أحد الشيئين الباقيين .. فبأيهما نضحى؟ " فأجاب الأستاذ: "بالقوت ... لأن الناس إذا فقدوا الثقة فى الحكام لم يبق أى أساس للدولة..".

ولقد جسدت الشريعة الإسلامية هذه الفلسفة السياسية فى العلاقة المتبادلة بين الحاكم والمحكوم. فالسمع والطاعة على المحكوم مالم يخالف الحاكم الشرع إذ يسقط عندئذ التزام المحكوم نحو الحاكم .. فقد رفض أعرابى السمع والطاعة لعمر ﷺ إلى أن

قدم له تفسيراً عن قطعة القماش الزائدة التى أخذها عمر ﷺ من ابنه ليكمل بها جلبابه لأن عمر كان طويل القامة.

وذات يوم طلب أبو ذر الغفارى ﷺ من النبى ﷺ الولاية على أحد الأقاليم ، فرفض الرسول ﷺ طلبه برغم ماكان يكنه لأبى ذر من حب وتقدير ، باعتبار أن النزاهة وحدها لاتكفى..إذ يجب أن تتوفر الدراية، فضلا عن الحنكة السياسية.. فكم من والٍ خلعه عمر ﷺ برغم نزاهته وكفاءته.وكان عمر ﷺ وهو على فراش الموت يقول "من لى بابن الجراح لأعهد إليه بمصير هذه الأمة" (وكان أبو عبيدة قد توفى بالشام فى وباء الطاعون قبل يومين أو ثلاثة).. وكان عمر ﷺ قد عزله قبل ذلك برغم أنه "أمين الأمة".. ولم يكن فى تصرف عمر أى تناقض لأن أبا عبيدة فى نظر عمر بهذه الحنكة على رأس الأمة.

ونظراً لقيام المدينة المسلمة على الفضائل فى الحاكم والمحكومين ، فقد أنشأت الشريعة الإسلامية نظام " الحسبة" للمحافظة على هذه الفضائل ولمراقبة استمرارها وفاعليتها فى الحياة العامة.. وهى نظام قريب الشبه بما يسمى اليوم بالنقد الذاتى أو النقد.. والمدينة المسلمة لاتشبه جمهورية أفلاطون ، وإنما نموذجها الحقيقى هو المدينة المنورة ذاتها فى عهد عمر ﷺ.

فعلينا بمقارنة نظمنا وأفكارنا السياسية الحالية فى العالم الإسلامى بهذه المنهجية السياسية ليتبين لنا مدى تخلفنا عن النموذج المثالى المأثور.. وإن تخلفنا ليتركز فى عدم اهتمام السلطات الحاكمة بكسب ثقة الجماهير ، وعدم اعتبار هذه القضية من أمهات الموضوعات التى تشغلها.. فضلاً عن اختلاف نهج السياسة الحالية فى البلاد الإسلامية سواء فى البلاد " المحافظة" أو التى تسمى " تقدمية ".

ولقد ضرب أيوب خان المثل الأعلى فى الديمقراطية وفى التواضع السياسى يوم أن تنحى وتخلى عن سلطاته كرئيس للدولة. وكذلك تصرف ديجول عام ١٩٦٨ عندما لم يحصل على أغلبية الأصوات فى الاستفتاء.

والسياسة يجب أن تشتمل على الأخلاق والجمال والعلم ليكون لها معنى فى التاريخ.. وقد قال شوان لاى " إن سياستنا لاتخطئ لأنها علم" .. أى ينبغى على السياسة أن تكون علماً اجتماعيا تطبيقياً.

ولقد انفق أهل الفكر بالصين ثلاثين عاماً من الفكر الاجتماعى والتاريخى وسكبوه فى الثورة الصينية.. وإن السياسة التى تمتص هذا القدر من المعارف لخليقة بأن تصبح علما مطبقاً على المشكلات الحيوية فى الصين.. ومن هذا الجانب بالذات اكتسبت الصين مع مفكريها منهج العمل العلمى – بعيداً عن الطابع الماركسى. وإذا كانت هذه

المناهج قد أثبتت فاعليتها في ظل حكم ماوتسي تونج فلأن هذا الحكم عرف كيف يطلب من هذه المناهج ماكان ينبغي.. وأن يطلب كذلك ماينبغي من كافة التقاليد الصينية القديمة حتى أساطيرها .. ثم بلور هذه العناصر كلها في أيديولوجية واحدة .. مع بقائه وفياً للمقتضيات الثورية.

إن العلم – بحرصه على الحقيقة – يصبح أخلاقاً لاتطيق الصبر على بقاء الخطأ حتى يتم تصحيحه فوراً.

ولكن البلاد الإسلامية لاتحب أن تنظر خلفها .. ومع ذلك فقد يكون ضرورياً أن نرجع عدة خطوات إلى الخلف من أجل تصحيح بعض الأخطاء .. وذلك بفتح مناقشة حرة عن هذه الأخطاء لإعادة الصلة وتجديد الثقة بين حاكمين ومحكومين.

وخير مثل للرجوع إلى المصادر التي تعيد الثقة ، ثورة الصين الثقافية التي قلبت طبقات المجتمع وعالم الثقافة من أساسها .. وجددت البلاد إلى حد كبير.

إن أمام البلاد الإسلامية اليوم هذه الدروس في السياسة العليا التي صنعت المعجزات الماثلة أمام أنظارنا ، ومن وراء البلاد الإسلامية دروس الثقافة الإسلامية الرفيعة التي تتيح لها استعادة بعض المفاهيم العظيمة ، ومنها " الحسبة " التي تستحق إدخالها في النظم السياسية في هذه البلاد بالذات.

الفصل الخامس عشر
الأفكار وازدواج اللغة.

•تمزيق الوحدة الثقافية.
•إضاعة المفاهيم الأصلية.

غرس عهد الاستعمار في البلاد المستعمرة ظاهرة ازدواج اللغة التي تتعلق بالتركيب الثقافي والعقلي أي بأفكار.. فضلاً عن كثير من الظواهر الأخرى التي غرسها في التركيب الاقتصادي والاجتماعي والإداري. وحتى البلاد الإسلامية التي لم يكن لها عهد بوجود الاستعمار الغربي الإداري والعسكري ، فإنها قد تأثرت هي الأخرى إلى حد كبير بثقافة الغرب . وبرزت هذه الآثار حتى في مجال ازدواج اللغة – وإن كانت بدرجات تفاوتت وبطرق اختلفت من بلد لآخر. ففي بلد مثل اليمن يبدو هذا الأثر معدوماً تقريباً، غير أننا لانستطيع أن ننفي عنه أي أثر جاءه عن طريق بلد إسلامي آخر كانت درجة تأثره أكبر.

ويمكن اعتبار مصر على طرفي نقيض كبلد يسود فيه ازدواج اللغة حيث تؤثر اللغة الانجليزية في ميدان معين من العمل الفكري في المجال الجامعي.. ونذكر كنموذج آخر الجزائر حيث أثر اللغة الفرنسية يمتد إلى مجال الحاجات العادية في الحياة اليومية ، ولايقتصر على ميدان العمل الفكري .. فالازدواج هنا ازدواج شعبي.

وازدواج اللغة هنا في حالة معينة قد يشبه المفجر الذي يعيد الحركة إلى العالم الثقافي. إذ تستعيد الأفكار المطبوعة قدرتها على الكلام وعلى الحياة بتأثير المعاني الواردة من ثقافة أخرى والمترجمة ترجمة دقيقة ، وتشرع في إنتاج أفكار موضوعة – قد يشوبها بعض الغموض بسبب أصلها المزدوج – إلا أنها تظل في ركاب الأفكار الأولى.

فقد افتتح الشيخ محمد عبده " برسالة التوحيد" عهداً جديداً في المذهب شبه الكلاسيكي الذي كانت عليه الثقافة الأزهرية في عصره ، وذلك بطريقته الجديدة في الصياغة والتعبير.. ومن أجل هذا اعتبر مجددا في إطار نوع من الكلاسيكية.

غير أن هذا الإطار قد يهتز بدرجة أكبر ، كما يلاحظ ذلك في مؤلفات علي عبد الرازق. فهذا الأزهري بعد أن أصبح من طلبة أكسفورد تحرر من منهج الأصول الإسلامية ذاته بإعادة طرح قيمه وأفكاره الجوهرية بطريقة غريبة عليه أدت إلى معارضته لفكرة الخلافة.

ويلاحظ هنا أن الخلاف الذي أدخله ازدواج اللغة في العالم الثقافي في البلد

الإسلامي قد شمل الجانب الأخلاقي والفلسفي ولم يقتصر على الجانب الجمالي.. ومع ذلك فقد يكون التأثير أكثر عمقاً من ذلك في بلد إسلامي آخر لم يقم فيه ازدواج اللغة بدور المفجر الذي يطلق الحركة في العالم الثقافي بعد أن كان نبض الحياة الفكرية قد توقف فيه.

ففي الجزائر مثلاً -وحتى بعد استقلالها - لم يتوقف الأمر عند دور المفجر. وإنما امتد أثره إلى مايشبه الديناميت عندما يلقى في العالم الثقافي - وإن لم يكن قد نسف كل شئ - إلا أنه أحدث شقوقاً فريدة في نوعها.

فقد ظهرت في الصفوة المتعلمة طائفتان : إحداهما تتكلم العربية وتحاول - مستلهمة نهج الشيخ ابن باديس - إعادة الصلة بالأصول الإسلامية أو العثور على فكرة تقليدية صادقة بعد فشل حركة الإصلاح.. والطائفة الثانية تتكلم الفرنسية وتتقنع بكل قناع.. لكي تخدم تحت اسم آلهة اليوم ومساخيط الساعة .. والواقع أنها لاتسعى إلا لخدمة نفسها بأي قناع. وامتد الفاصل الزمني على هذه الأوضاع لمدة نصف قرن في عالم ثقافي مزيف لاتستطيع فيه أية فكرة - على قدر من الثقة بنفسها - أن تنهض وتقود الشعب الجزائري إلى قدره المشرق.

فطائفة لم يحالفها التوفيق في إعادة ربط الروح الجزائرية بالسلف الصالح لفقدان الصلة الحقيقية مع نماذجهم المثالية .. والطائفة الأخرى لم تتمكن من عقد الصلة مع الحضارة الغربية لعدم توفر الفهم الدقيق لروحها العملية. إن افتقاد الأفكار الصحيحة من ناحية ، وغياب الأفكار الفعالة من ناحية أخرى ، جعل الشعب الجزائري يسير في محله.. وتوقف السير نصف قرن لأن خذلان النماذج المثالية من جانب كلا الطائفتين أدى إلى انتقامها.

وأخيراً - وبعد أن قطع الشعب الجزائري الفاصل الزمني - تخلى عام ١٩٥٤ عن جميع قادته الروحانيين وانطلق وحده في طريق الثورة. وفي الحال تحول الأخوة الأعداء إلى " أصدقاء" حتى لايبتعدوا عن الشعب الذي ينوون استعادة سيطرتهم عليه وتحالفوا مع الثورة في الظاهر. والواقع أنهم تحالفوا مع الزعماء الذين كانوا يوزعون المناصب والمنح الدراسية في تونس وفي مصر.

ومهما يكن من أمر ، فعندما يرفع الستار من جديد على الواقع الجزائري ، يمكننا أن نرى آثار ازدواج اللغة على أوضاع أكثر وضوحاً ، بعد أن تخلصت من الظل الذي كان يخيم عليها بوجود الاستعمار إلى عهد قريب .. وبعد أن اختفى اللبس الذي أبقى عليه الاستعمار وبعض الألعاب البارعة في سني الثورة الأولى .. وعندئذ يبدو مدى عمق التصدع الذي أحدثه ازدواج اللغة.. والذي أثر على القمة والقاعدة معاً. ولم يعد في

البلد الواحد " نخبتان " فقط وإنما " مجتمعان " متراكبان .. أحدهما يمثل البلد التقليدى والتاريخي ، والثاني يريد أن يصنع تاريخه مبتدئاً من الصفر .. فالأفكار المطبوعة لهذا الفريق ، والأفكار الموضوعة للفريق الآخر ، لاتستطيع أن تتعايش في عالم ثقافي واحد.. لأن المجتمعين يتحدثان بلغتين مختلفتين. فما يعبر عن الأفكار الموضوعة في أحد المجتمعين ، ليس له أى معنى بالنسبة للأفكار المطبوعة الخاصة بالمجتمع الآخر. فمن جانب ، الفكرة التي فقدت إشراقها الاجتماعي ، ومن جانب آخر الفكرة التي لها إشراق قاتل.. من ناحية الركود والسكون .. ومن ناحية أخرى الحركة المزيفة والفوضى الصارخة.

إن اهتمامنا هنا ينحصر في نتائج هذه الظاهرة ، وليس في البحث عن أسبابها التي ترجع إلى حد كبير إلى الصراع الفكرى.

ولكن مقدرات ازدواج اللغة قد تمتد إلى مجال المجهودات الخلاقة الجادة.. مثل الأدب العربي حيث يتألق توفيق الحكيم ولكن من المؤسف أن نراه يتورط في عرض مواقف تظهر فيها أفكارنا الأصيلة وهي تخون النماذج المثالية في ثقافتنا وهي تساير الثقافة الأجنبية.

ففي إحدى مسرحياته المقتبسة التي تدور حول الحق والقوة ، كانت الشخصية التي تطرح البرهان هي شخصية القاضي العز بن عبد السلام - دون ذكر اسمه- والذى يمثل شخصية القاضي العادل الذى لايلين ولايتهاون في شئ - وكان مفهوم معنى "القانون" إذا جاء على لسانه لابد أن ينطق " الشريعة" ليكون له وزنه في المشكلة الأخلاقية.. وذلك شأن مصطلحات الشريعة الإسلامية التي تحمل قدراً من العاطفة والأخلاق مع الجانب اللغوى والبلاغي.. ولكن كم كانت دهشتنا أن يكون نطقها "القانون" كما لو كان المتكلم أى قاضي من القضاة. فهذا من مظاهر ازدواج اللغة عند تعبيرنا عن أفكارنا باللغة العربية.

وهناك مثال يتعلق بتعبيرنا عن فكرنا بلغة أجنبية. فقد جاء بإحدى مطبوعات وزارة الاستعلامات عن " فن العمارة بالجزائر" " كان يطلق على المهندس المعمارى في الماضي اسم " معلم البناء".. وكان يستدعي لبناء القصور والمعابد والكنائس والأبنية الدفاعية.." فبكل أسف أغفل ذكر "المسجد" الذى هو من خصائص العمارة الإسلامية حتى عندما يدرس في انجلترا أو ألمانيا أو فرنسا...

فأقل مايقال هنا هو أن ازدواج اللغة يمكن أن يتولد عنه آثار تتعارض أشد المعارضة مع ثقافتنا الوطنية.

الفصل السادس عشر
الأفكار الميتة والأفكار القاتلة.

•الأفكار الميتة نتيجة تركة ثقافية لم تصفى.

•الأفكار القاتلة نتيجة التقليد الأعمى.

حين مر أمير الشعراء بباريس ألهمه ظرف معين فأنشد قصيدة حيًا بها مدينة الأنوار.. ولم يكن يدرى أنه أتاح بذلك فرصة ستستغل يوماً ضده من بعض دعاة الحياد الثقافي الزائف .. الذين يتمسكون بحياد عالمنا الثقافى ، بسد جميع المنافذ لحمايتنا من العدوى ، ويرون وجوب مراقبة أنفاس الفكر وعند اللزوم وقفها.. وان توضع على عقولنا أقنعة الغاز خوفاً من أية عدوى محتملة.

وعندما فكر ماكارثي Maccarthy في تنظيم التنفس الفكرى فى بلاده اتهمه الرأى العام العالمى بأنه رجل مشعوذ .

كنت استمع إلى أحد خريجي جامعة الزيتونة ، وكنت أعلم أن مايقوله عن شوقى ليس رأيه الشخصى ، وإنما هو الرأى الذى يتكون فى عالم ثقافى عندما تنفصل فيه الأفكار عن جذورها وتصبح أفكاراً ميتة.. وتجاور أفكاراً أخرى قاتلة لأنها تركت جذورها فى عالم ثقافى آخر استوردت منه عن طريق الخطأ.. وكان الزيتونى يقول أن تحية شوقى لباريس فيها هذا الأثر المخرب من الثقافة الغربية التى تسخّر ٩٠٪ من الصفوة المسلمة لخدمة الاستعمار.. وذلك بقليل أو كثير وعى منهم.

وبجانب هذا التصريح ومايسانده من المظاهر يوجد الواقع المريض " للأفكار الميتة " التى نشأت عن وراثتنا الاجتماعية ومجاورة " أفكار قاتلة" استوردت من الغرب.. حيث يتجلى كلٌ من مظهرى المأساة الاستعمارية ألا وهما : القابلية للاستعمار والاستعمار مترجمَيْن فى شكل ثقافة.

ولاشك أن هذه الأفكار لم تولد بباريس أو لندن ، وإنما فى فاس وفى الجزائر وفي تونس وفى القاهرة .. وطالما أنه لم يتم القضاء عليها بنظام منهجى ، فإنها تصبح "كالفيروس" الوراثى الذى ينسف الكيان الإسلامى من أساسه بتخدير حوافزه الدفاعية. وينبغى اكتشاف موطن الظاهرة المرضية فى الثقافة الحديثة للعالم الإسلامى .. وإلا فإن الأفكار الميتة ستواصل عملها التخريبى فى المجال الاجتماعى والسياسى.

ولكن بمجرد أن تطرح مشكلة الأفكار الميتة التى لم تعد لها جذور فى بلازما الثقافة الأصيلة للعالم الإسلامى نصطدم بمشكلة الأفكار القاتلة التى انفصلت عن جذورها وتركتها فى عالمها الثقافى الأصلى.

وأحياناً " يمتص" الفيروس الوراثى الجرثومة الأجنبية بطريقة ما .. بمعنى أن الفكرة الميتة هى التى تنادى وتجذب الفكرة القاتلة إلى المجتمع. ولقد كان من المتعذر إقناع ناقد شوقى بالعلاقة الحيوية بين هذين المظهرين المرضيين.

وهذه الظاهرة المزدوجة للترابط تطرح من حيث مظهرها الثانى مشكلة يجب عدم التعرض لها بطريقة عكسية. فلا يجوز أن نتساءل لماذا تنطوى الثقافة الغربية على عناصر" قاتلة"؟ وإنما يجب أن نسأل لماذا تقصد الصفوة المسلمة هذه العناصر بالذات وتأخذ منها؟ .. فليس مضمون الثقافة الغربية هو الذى يحدد طريقة " الاختيار" ، وإنما هى روح عصر مابعد التحضر هى التى تحدد طريقة الصفوة فى الاختيار الإرادى أو اللاإرادى . لأن الواقع أن هناك اختيار بالفعل.. لأنه ليس كل مافى ثقافة الغرب قاتل .. وهى الثقافة التى تبث الحياة فى حضارة لازالت تقرر مصائر الناس ولو إلى حين.

أما العنصر القاتل فى موطن ثقافة الغرب فهو نوع من "النفاية" أى الجانب الميت فى هذه الحضارة . ولايقع اللوم إلا على روح عصر مابعد التحضر التى تتجه إلى هذه النفاية وتنهل منها.

وإذا تأملنا أثر هذه النفاية وتركيبها فى التحول الغذائى الثقافى للمجتمع الذى يمتصها،فإن النتيجة تكون حالة من التعفن تلتبس على العقليات السطحية فى بلادنا فتعتقد أنها هى الثقافة الغربية .. وهذا الالتباس ناتج عن موقفنا تجاه قضية الثقافة بوجه عام وتجاه الثقافة الأوروبية بوجه خاص.

ولكن إذا كانت الأفكار التى نستوردها قاتلة أيضاً فى موطنها الأصلى ، لكانت النتائج على الصعيد الاجتماعى هى نفس النتائج - أى حالة تعفن.. ولكن من المتفق عليه أنه يوجد شئ آخر فى حضارتهم، هو أن هناك أجزاء سليمة وقوية هى سبب قوتها برغم كل شئ. ويتضح هذا التناقض الظاهر عند عقد بعض المقارنات.

فعلى الصعيد الفردى نجد مثلا الشاعر محمد إقبال قد جعل ثقافته تهيم بها النفوس ، وتستحق كل تقدير على الأقل لنزاهتها. فلقد تمكن بفضل جهده الخاص ، أو بفضل ظروف استثنائية – أن يصفى مخزون الأفكار الميتة التى وجدها فى بيئته عند ميلاده.. والشئ الذى له دلالته فى هذا المقام هو أننا نجد فى إنتاجه الفكرى العناية والحرص على إعادة بناء الأفكار الميتة. ولقد ترك لنا فكرة تدل على اهتمامه بقضية

التصفية هذه بعنوان " إعادة بناء الفكر الإسلامي ". بينما نجد في جانب آخر قافلة من المفكرين يمثلون في بلادهم طابوراً خامساً لإحدى الثقافات الأجنبية – أي لإحدى السياسات الأجنبية.

وهناك مقارنة أدعى للإقناع. فقد بدأت الانطلاقة الحديثة للمجتمع الإسلامي مع انطلاقة اليابان عام ١٨٦٠ حيث بدأ المجتمعان يتتلمذان على الحضارة الغربية. وأصبحت اليابان اليوم ثالث قوة اقتصادية في العالم. ولم تجعلها الأفكار القاتلة الموجودة في حضارة الغرب تزيغ عن طريقها ، وإنما بقيت وفية لثقافتها وتقاليدها وماضيها.. بينما المجتمع المسلم اليوم – برغم الجهود المشكورة ، وبعد مضي قرن من الزمان – لايزال مجتمعاً نامياً– أي متخلفاً .. ولاشك أن القضية هي قضية الطبيعة الشاذة لعلاقتنا بالثقافة الغربية.

فالطالب المسلم الذي يذهب إلى مدرسة الغرب ، لايتوغل في منابع الحضارة الغربية ، وإنما يتوقف عند جهاز التقطير الحضري أو عند صندوق القمامة .. حيث لاوجود للحياة ولا للحقيقة المجسمة في المُزارع والحرفي والفنان والعالم.. الذين يصنعون "أمجاد" بلادهم اليومية. لقد حالت روح عصر مابعد التحضر بيننا وبين أن نميز أو أن نرى سوى ماهو تافه وغامض.. وحتى ماهو قاتل.

نستطيع الآن أن نرى بوضوح أبعاد المناقشة بين موقف شوقي وموقف معارضيه ، وماإذا كانت القصيدة كانت من إلهام الأفكار القاتلة.. أم أن رأي خصومه هو الذي كان من إلهام الأفكار الميتة. وعلى أية حال لقد نطق عامل جزائري بسيط كان يعمل بباريس – بالكلمة الفاصلة في مناقشتي مع الزيتوني إذ قال : " أعتقد أن هذا الموضوع يشبه عملية التطعيم الزراعي ، حيث نرى الفرع الذي يضاف إلى الشجرة لايأتي بثمار تشبه الشجرة التي ألحق بها ، وإنما ينتج ثماراً تشبه الشجرة الأم التي أخذ منها الفرع".

ليس في الإمكان التعبير عن مشكلة الوراثة في مجال الأفكار بأبلغ من هذه الصورة الحية.

الفصل السابع عشر
انتقام الأفكار المخذولة

•الأفكار الميتة تنتقم بتجميد التقدم.
•الأفكار القاتلة تنتقم بتدمير التقدم.

تنطوى كل من الفكرة الميتة و الفكرة القاتلة على خيانة للأفكار مما يجعلها سلبية او ضارة. وليست هذه الخيانة قاصرة على المجتمع الإسلامى .. فقد انتجت نفس العوامل النفسية الاجتماعية ذات الآثار المعوقة فى مجتمعات اخرى وفى عصور مغايرة.

ولقد حرص سقراط على تجنيب مجتمعه مثل هذه النتائج عندما كشف اللثام عما اسماه " قتلة الأفكار " ثم اضاف التاريخ الى حكمة سقراط ما يثبت ان الأفكار المقتولة -اى المخذولة -تنتقم بشراسة .

وكما ان الأمراض المعدية تنتقل بين الأفراد بواسطة الجراثيم ، فان التاريخ الموغل فى القدم يخبرنا بان هناك امراضا تصيب النظام و البناء و الحياة داخل المجتمع ، و تنتقل عدواها من جيل الى جيل .. فما هو العامل الذى ينقل المرض الاجتماعى ؟ و هل ينشأ اصل المرض الذى يصيب المؤسسات و يقضى عليها ، داخل المؤسسة مباشرة ام ينتقل اليها بنوع من الامتصاص من بؤرة العدوى .

ان طريقة تحديد اسباب الداء هى التى تتيح بحث الموضوع الذى نحن بصدده بطريقة سليمة .. فهناك انظمة اجتماعية يصيبها الكبر وتموت موتتهاالطبيعية .. فلو ان نظام الرق لم يتم الغاؤه على يد رجال القرن التاسع عشر لألغته آلات القرن العشرين .. و لكن كون نهاية الرق جاءت فى مجال الأفكار قبل مجال الأشياء فهذا له دلالة بليغة و مغزى عظيم.. وهو قرينة على ان الأنظمة التى ليس لها سند من الأفكار هى فى طريقها الى الفناء.. وان لم تكن القرينة دليلاً قاطعا الا انها تفتح مجالا للبحث و التحقيق.

كما ان هناك انظمة اجتماعية لا تشيخ ابداً , مثل نظام الزواج الذى اذا تم الغاؤه فى مجتمع ما كان ذلك دليلا على مرض المجتمع ذاته .. و يكمن أصل المرض فى هذه الحالة فى العالم الثقافى . فقد نشأ عن الازمة الثقافية فى بعض بلاد شمال اوروبا ظهور الخنافس Hippies فضلا عن وجود محاولة لاستبدال نظام الزواج التقليدى بالزواج الحر او بنظام زواج يقوم على الشذوذ الجنسى بين الرجال .

و الجانب النفسى هو الذى يسبق و ينظم الجانب الاجتماعى ،و بالتالى فان التغيرات ذات الصفة النفسية هى التى تؤدى الى ظهور تغيرات اقتصادية و سياسية على

سطح الحياة الاجتماعية .. مما ينتهي بنا الى المبدأ الذى قرره القرآن الكريم على شكل حكم تقريرى ﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم -الرعد ١١ ﴾ ولقد تضمنت الآية الكريمة خلاصة النتائج التى يمكننا الخروج بها من انتقام الأفكار المخذولة.

و ليس يوليوس قيصر هو الذى قضى على جمهورية روما حين عبر نهر "روبيكون " دون اذن من "كاتون " و باقى الاعيان ، و انما كان الفناء قد دب فى الفكر الرومانى نتيجة للتغيرات الخفية التى طرأت عليه .. بدليل ان موت يوليوس قيصر لم يرجع الجمهورية الى روما . وكذلك الحال لأسباب سقوط الجمهورية فى أثينا ، لأن التغيرات النفسية التى تطرأ على التطور و تصبح واضحة على الصعيد الاجتماعى والسياسى تنشأ فى حقيقة الأمر على مستوى الدوافع التى تتحكم فى السلوك الانسانى .

و هذا هو ما ادى الى افول نجم روح الديمقراطية فى المجتمع الاسلامى اعتبارا من عام ٣٨ الهجرى عندما فترت الصلة و انقطعت المحبة بين عقيل و اخيه علىّ بن ابى طالب فى صراعه مع معاوية ، وبرر عقيل هذا الموقف الغريب بحجة اكثر غرابة – كما رأينا فى الفصل التاسع –عندما قال " ان صلاتى خلف علىّ أقوم لدينى ،ولكن طعامى عند معاوية اقوم لصحتى " فقد تجلى اختفاء الدوافع النبيلة الأولى التى حركت الصحابة الأوائل .. وسيكون انعدام هذه الدوافع اشد بعد ذلك بعشرين عام عندما استجاب الحسين بن علىّ لإلحاح أهل الكوفة ، برغم محاولات ابن عباس فى ان يثنيه عن مغادرة المدينة قائلا "ان هؤلاء القوم سيخذلونك كما خذلوا اباك من قبل .. لاتصدقهم .. ان قلوبهم معك ولكن سيوفهم مع يزيد ". هذه الشهادة الصادقة تضع ايدينا على سر اختفاء الدوافع .. انه الانفصام الذى يقسم المسلم الى قسمين .. وهو بداية التدهوروالانحطاط والبعد عن المبدأ القرآنى ﴿إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لاشريك له.. – الأنعام ١٦١-١٦٢﴾ الذى يقرر النموذج المثالى فى عالم الثقافة ، والذى يكشف بوادر الانحراف فى سلوك المسلم .

ولا ينبغى ان ننسب انعدام الفعالية فى سلوك المسلم الى الإسلام..فهذا هو الخطأ الشائع عند المستشرقين وعلماء الاجتماع الغربيين فى دراساتهم للعالم الاسلامى الحاضر[1].

---

[1] نشرت "اخبار اليوم" عام ١٩٦٠ نتائج بحث غريب لعلماء اجتماع امريكيين انتهوا فيه الى ان "الفاعلية لم تنمو الا حيث ظهر الفكر المسيحى واليهودى ..ولم يظهر عدم الفعالية الا حيث سادت الفكرة الاسلامية.." وهذا خطأ تاريخى جسيم .

ومهما يكن من امر ، اذا سلمنا بان كل تصرف يخضع لمجال الافكار سواء فى دوافعه اوفى وسائله التنفيذية ، فمن الجدير بالملاحظة ان كل نشاط اجتماعى تكمن فى اساسه الفكرة عندما تندمج فى السلوك ، اى كما نفسرها وكما نفهمها وكما نهضمها.

وبحصر عدد حالات القصور او حالات الفعالية فى مجتمع ما ،فاننا نقرر فى الحقيقة النتائج الموضوعية "لعالم افكاره" . علما بان الخيانة للافكار المندمجة وانحراف الافكار الجارية ازاء الافكار الجوهرية تحدد مقدار عدم فعالية المجتمع ، وانه من خلال بعض التصرفات وبعض العقد ينشأ الزيغ من جيل الى جيل .

ويحدث تقليد السلوك عن طريق الافكار .اما الجانب المرضى للسلوك ،فهو العدوى الاجتماعية التى تتم بطريق الامتصاص من جانب الافكار عندما تنفصل عن نماذجها المثالية فى عالم الثقافة الاصلى ، وتنتقل العدوى من جيل الى جيل . وتكون الافكار فى هذه الحالة هى " الجراثيم " التى تنقل الامراض الاجتماعية .. ومثل هذه الفكرة تكون فكرة خذلت نموذجها المثالى ، وينعكس المرض على المجتمع الذى يصاب بنتائج الانحراف الذى يمس عالمه الثقافى .. واحيانا يحدث انعكاس الفكرة المخذولة فيعود بالخير عند اكتشاف بطلانها .

فعندما انفجر عمر بن الخطاب ضاحكا يوم ان أسكت جوعه بأكله الصنم المصنوع من الحلوى،كان هذا اعلانا للأزمة التى كان يمر بها عالم الثقافة الجاهلى الذى كان على نماذجه المثالية ان تختفى فى القريب العاجل ومعها اوثان الكعبة..وهذا ما حدث .

والمجتمع الاسلامى يواجه اليوم هذه المشكلة .. فهو يتعرض لانتقام النماذج المثالية لعالمه الثقافى الخاص ، وكذلك للانتقام المروع من جانب الافكار التى نستوردها من أوروبا دون مراعاة للشروط التى تصون قيمتها الاجتماعية. مما يؤدى الى انخفاض قيمة الافكار المكتسبة وينتج اخطر الاضرار على النمو الاخلاقى والمادى فى العالم الاسلامى.

فترى –من جانب – ان الافكار التى اثبتت فعاليتها فى اقامة الحضارة الاسلامية منذ ألف عام تبدو اليوم غير فعالة ، كما لو كانت قد فقدت تجاوبها مع الواقع . ومن جانب آخر ،فإن الافكار الاوروبية التى شيدت ما يسمى بالحضارة الاوروبية هى الاخرى قد فقدت فعاليتها فى العالم الاسلامى الحاضر .. لقد تلطخ سلوكنا الحالى بخيانة مزدوجة.

ان الافكار المخذولة من كلا الجانبين تنتقم بشراسة ونحن نعانى من هذا الانتقام المروع اشد المعاناة .

الخاتمة

منذ قرن مضى والعالم الاسلامي يطل برأسه من خلف عصر ما بعد التحضر.. ومع ذلك فإنه لم يستقر بعد في وضعه الطبيعي ولم يسترد توازنه.. وان الانحلال الذى ساد فى هذا العالم ، قد قضى عليه بالجمود والخمول والضعف والقابلية للاستعمار ، فاصبحت قيمه الاسلامية فى حالة تحجر. انه يطل بحالته المتأخرة هذه على القرن الواحد والعشرين الذى بلغ القمة فى القوة المادية بينما قوته الاخلاقية فى تدهور منذ الحرب العالمية الاولى.

والعالم الاسلامى اليوم تعصف به افكار متناقضة .. وهو يواجه مشكلات الحضارة التكنولوجية وهو غير مرتبط بجذوره المتينة .. كما انه يجابه افكارا توثقه بعالمه الثقافى الخاص من غير ان تربطه بنماذجه المثالية .. وهو على وشك ان ينجرف إما عن افتتان ، وإما بفعل المزالق الموضوعة تحت قدميه – برغم الجهود الاصلاحية المشكورة –فى تيار " الايديولوجيات " الحديثة التى ثبت افلاسها فى الغرب حيث نشأت.. وهو ان فعل ذلك ، فيخشى ان يظل متخلفا عن التاريخ بمرحلة – اى انه سوف يعيد على حسابه اجراء التجارب القديمة التى سبق ان باءت بالفشل .

ومن هذه التجارب تجربة الماركسية التى بدأت تتقادم على الصعيد العلمى وعلى الصعيد الفلسفى . وبينما الصفوة فى بلاد الغرب – التى انبهرت بها – قد خاب أملها فيها، وشرعت تسترد استقلالها الفكرى فى السنوات الاخيرة .. نرى الماركسية اليوم تستحوذ تدريجيا على اهتمام المسلمين وفكرهم .

إن صنع التاريخ لا يتحقق الا بالسير فى دروب جديدة ، ولا يتم الا بالافكار الصادقة التى تتجاوب مع كافة المشاكل ذات الطابع الاخلاقى .. وبالافكار الفعالة التى تواجه مشكلات التنمية لمجتمع يريد اعادة بناء نفسه .

لقد حاولنا فى الفصول السابقة عرض وتحليل الصعوبات التى يتخبط فيها المجتمع الاسلامى فى مواجهته لمشكلاته الحاضرة ، وهى صعوبات تتداخل فيها افكار متناقضة.

ان عرض مشكلة الافكار هنا كان بقصد اظهار وزنها فى التاريخ وفى مصائر الناس .. واذا لم يكن قد حالفنا التوفيق فى وضع حل واضح لهذه المشكلة ، فيكفينا اننا رسمنا حدودها بالقدر المطلوب .. فضلا عن ان غايتنا لم تكن سوى فتح باب المناقشة الحرة لهذه المشكلة التى لن تنته بانتهاء كتابة هذه السطور ..

فهرس

سلسلة كتب مشكلات الحضارة للمؤلف

• الظاهرة القرآنية	الطبعة الثالثة	بيروت
• لبيك	لم يترجم بعد	
• شروط النهضة	الطبعة الثالثة	بيروت
• وجهة العالم الإسلامي	الطبعة الثانية	بيروت
• الفكرة الأفروآسيوية	الطبعة الأولى	القاهرة
• فكرة كومنولث اسلامي	الطبعة الثانية	القاهرة
• مشكلة الثقافة	الطبعة الأولى	القاهرة
• تأملات	الطبعة الأولى	القاهرة
• ميلاد مجتمع	الطبعة الأولى	القاهرة
• حديث في البناء الجديد	الطبعة الأولى	بيروت
• في مهب المعركة	الطبعة الأولى	القاهرة
• آفاق جزائرية	الطبعة الثانية	القاهرة
• مذكرات شاهد القرن	الجزء الأول: الطفل	بيروت
	الجزء الثاني : الطالب	
• مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي	الطبعة الأولى	القاهرة
• انتاج المستشرقين	الطبعة الثانية	القاهرة

هذا الكتاب

فى عالم اليوم الذى تسود فى أغلب أرجائه الحضارة المادية التى تدور فيها الأفكار حول الأشياء .. وبينما العالم الإسلامى يمر بمرحلة مابعد التحضر حيث تنزوى فيه الأفكار شيئاً فشيئاً ، وتزحف الأشياء لتحتل مكان الأفكار ، وتتبدل الأفكار الأصيلة فى عالمه الثقافى بأفكار مكتسبة غريبة عليه ، تشوه القيم الأخلاقية فى الأشخاص ، وتقلب الروابط الاجتماعية من أساسها ، فيتجه المجتمع رويداً رويداً نحو الحضارة المادية – وإن لم يكن هذا التحول قد تحقق بتمامه فى هذه الأيام.. وإن كان فى طريقه إلى التحقق– فإن إعادة التأمل فى مدى أهمية الأفكار ودورها الحضارى ، ومشكلاتها فى العالم الإسلامى تكون أشد إلحاحاً اليوم من أى وقت مضى.

وكتاب " مشكلة الأفكار فى العالم الإسلامى" وقد صدر منذ مايزيد على ٢٥ عاماً حمل رؤية المفكر الإسلامى الجزائرى – مالك بن نبى – لقضية الأفكار بصفة عامة وفى ظل الظروف التى كانت سائدة وقت صدوره بصفة خاصة،ومع التغيرات التى طرأت على العالم كله منذ ذلك الوقت والتى تتجدد يوما بعد يوم، فقد برزت للكتاب أهمية أخطر فى هذه الأيام،وأصبحت له معانى جديدة فوق المعانى التى كانت له وقت صدوره.

مما دعانا إلى تلخيص هذا الكتاب وإعادة صياغته بأسلوب مبسط لتقريبه إلى القارئ الكريم الذى ندعوه إلى إعادة النظر إلى ظروف عالمه الحالية. وظروف المجتمعات الإسلامية ، ووضع الإسلام فى العالم اليوم ، وموقف شتى القوى العالمية منه – من خلال رؤية هذا الكتاب الحضارية المتجددة المعا

والله ولى التوفيق ،،،